الدكتور أديب نصّور

النكسة والخطأ

الأخطاء الفكرية والعقائدية
التي أدّت إلى الكارثة

دار الكاتب العربي

كي لا نكون في ما بعد أطفالا مضطربين ومحمولين بكل ريح تعليم ..

(رسالة بولس الى أهل افسس)

ما جاءنا عن رسول الله قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عـن الصحابة رضي الله عنهم فناخذ منـــه ونترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال..

(الامام الغزالي)

النكسة والخطأ

« انها أكثر من جريمة ، لقد كانت خطأ .. »

(تاليران)

النكسة .. ما أضعف هذه الكلمة وأخفها أمام الواقع المثقل الخطير الذي تحاول الكلمة الضعيفة أن تحمل الينا معناه فتنوء بالحمل الثقيل .

انها « كارثة » (١) و « كارثة عسكرية » و «الكارثةالكبرى» (٢) .
وهي « نكبة تجل عن الوصف وعار لا يطاق يلحق بنا جميعا » (٣) .
وهي «أزمة من أخطر ما واجهت الامةالعربيةفي تاريخها الحافل» (٤)
وهي « المأساة المروعة » و « المأساة الفاجعة » و « المأساة الرهيبة » (٥) .

وهي ، كما كتبت مجلة نيوزويك ، كارثة من أسوأ ما حل بالعالم العربي في تاريخه الطويل (٦) .

وكيف لا تكون كذلك وقد وصلت اسرائيل في أقل من سبعة أيام الى قناة السويس ونهر الاردن وأصبحت على بعد خمسين كيلومترا من دمشق ، محتلة بذلك سبعين ألف كيلومتر مربع من الارض العربية ومخضعة لحكمها مليون ونصف مليون عربي آخر ، وواضعة تحت سيطرتها ، لاول مرة في التاريخ ، الاماكن المقدسة في المسيحيةوالاسلام ؟

---

(١) الملك حسين : « لقد وقعت كارثة ولا أقول النكسة » ، الحياة ، ١٧ تشرينالاول ١٩٦٧
(٢) ابراهيم الشريقي ، الحياة ، ٢٩ آب ١٩٦٧
(٣) مذكرة عبد الغني الراوي الى الرئيس عارف ، الحياة ، ٩ آب ١٩٦٧
(٤) محمد حسنين هيكل ، الاهرام ، ١٥ أيلول ١٩٦٧
(٥) رسالة السيد محسن الحكيم الى المؤتمر الاسلامي في عمان ، الحياة ، ٢٠ أيلول ١٩٦٧
(٦) « نيوزويك » ، ١١ أيلول ١٩٦٧

ولا نذكر الكميات الهائلة من السلاح الحديث والعتاد الثقيل الذي غنم أو دمر وضاع ، والحصون التي حصنت في عشرين سنة لتقع بيد الاعداء في ساعات معدودات ٠

والذين قتلوا في معركة غير عادلة وبلغوا خمسة عشر ألفا ، والذين شردوا ويقترب عددهم من نصف مليون لاجىء بعضهم شرد للمرة الثانية ويعيش أكثرهم تحت الخيام ، والذين لم يؤدوا الامانة ولا أنصفوا السلاح الحديث الكثير الذي وضع بين أيديهم ٠٠ أولئك وهؤلاء أضافوا سطورا كثيرة الى الفاجعة القومية الكبرى ، بعضها مضيء وبعضها أشد ظلاما من الظلام ٠

لكن العرب ، قادة وساسة وكتابا وباحثين ، لا شقيت بهم أمة العرب ، اصطلحوا على هذه التسمية ، فلتكن هذه « نكسة » كما كانت تلك « نكبة » ، والقول ، على كل حال ، ما قالت العرب ٠

أما كلمة « الخطأ » فليست ضئيلة ولا هينة ٠ ولست أقلل من فداحة الاخطاء التي دفعت العرب الى الكارثة أو النكبة أو النكسة ٠ اني أطلق هذه الكلمة « الخطأ » على مجموعة من الافكار الخاطئة والسياسات والاعمال الخاطئة ، وأقصد بالخطأ ذلك المعنى الخطير الذي قصد اليه تاليران اذ بلغه ان نابليون أعدم أحد النبلاء فقال قولته المشهورة : « انها أكثر من جريمة ، لقد كانت خطأ » ٠

وبعد فقد كتب الشيء الكثير عن النكسة ، ولست أكتب لالخص ما كتب وما قيل ٠ كما اني لا أكتب لانقض هذا الذي قيل ٠ وانما هي مشاركة في المناظرة الكبرى والنقاش الواسع الذي يجب أن يجري بين العرب ٠ وبما ان المصيبة كانت عامة وشاملة فان النقاش يجب أن يكون عاما يساهم فيه كل مستطيع على قدر طاقته وحسب رؤاه ٠

واني لاخشى أن يضيع الموضوع الرئيسي في صخب السياسات والكلمات والشعارات والشخصيات والانظمة والعهود والثورات ، كما أخشى أن تحجب عنا التفاصيل الكثيرة والقصص الصغيرة رؤية الحقائق الكبرى ٠

ولقد بحث ملوك ورؤساء وساسة ومفكرون وكتاب في أسباب النكسة وساهموا في كشف طائفة من الحقائق وأحاطوا بكثير من الامور ، وسيبحث الباحثون طويلا في وجوه النكسة وهي متعددة ومتشابكة وبعيدة الاغوار ، فرأيت انه لا بد من تخصص في البحث على ما في ذلك من تجزئة للموضوع الواحد ومن عزل لبعض الامور عن بعضها الآخر ، وعلى ما في ذلك أيضا من تبسيط للواقع الشديد التعقيد ٠ واختصاص هذا البحث ينصب على أخطاء الفكر التي سادت الاجواء العربية في العقدين الاخيرين ، وكان الخطأ في التفكير مقدمة للخطأ في العمل ٠

ومما يجعل هذا البحث ضرورة حيوية لمستقبل العمل العربي ان الاخطاء الفكرية التي مهدت للنكسة استمرت بعد النكسة وكأنها أقوى من الهزيمة وأقوى من العار ، وهي حتى بعد انقضاء سنة وشهور على النكسة ما تزال ترفع صوتها بدون حياء وتتحدث من أعلى المنابر في بلاد العرب ٠ انها أسراب هائمة من الافكار الخاطئة تحجب الرؤيا وتعمي الابصار ٠

وهذا الخطأ الفكري كان يجب أن يسقط كله مع السلاح الذي سقط في الايام الاولى من حزيران ١٩٦٧ ٠

وقبل البحث في أخطاء الفكر لا بد من تناول تلك الظاهرة الغريبة التي مكنت الاخطاء من أن تشيع وتتغلغل الى الاعماق وتملأ الآفاق ألا وهي ظاهرة تعطيل العقل العربي وأكاد أقول محاولة الغاء العقل في بلاد العرب ٠

ولست أحب أن أبحث عن مصادر تلك الاخطاء وعما يكمن وراءها من دوافع . فهناك من يعتقد بأن الخطأ صدر عن جهل أو حسن نية أو عدم تجربة . وهناك من يعتقد ان الكثير من الافكار والمذاهب التي سادت العقدين الاخيرين هي في التحليل الاخير كيد خفي كاده لنا العدو ووجد طريقه الينا بواسطة أفراد أو جماعات بعضها مخدوع وبعضها الآخر الله أعلم بأمره .

وهذه منطقة من البحث لست أملك الآن العناصر الكافية للخوض فيها . ومهما تكن المصادر والينابيع الخفية ومهما تكن الدوافع الكامنة في الظلام فحسبنا أن نضع يدنا على الافكار ذاتها والآراء والشعارات والنظريات التي طرحت في العقدين الاخيرين على أمة العرب وفتنت الشعوب فتونا ، وأن نزنها بموازين الحق والخير ثم نحاول أن نعلم ما كان لها من اثر في حياة الامة العربية وفي ما أصابها في الايام الاولى من حزيران ١٩٦٧ ، تلك الايام الستة المخزية التي اصطلح العرب على وصفها بالنكسة وجئنا هنا نعطف عليها الخطأ .

ومن فضول القول بعد ذلك أن نضيف ان الغاية من هذا البحث كله هي أن يسقط الخطأ ويقضى على فساد الرأي وضلال الاجتهاد ، وأن يستقيم لنا التفكير حتى يستقيم لنا العمل آخر الامر . فمما لا شك فيه ان هناك شيئا فاسدا في دولة الدانمرك ، كما يقول هملت في مأساة شكسبير .

تعطيل العقل العربي

« .. وأفكاره ليست أكثر من شهوات في كلمات . »

(أورتيكا ايفاسه)

عاش العرب في العقدين الاخيرين ، وعلى التحديد منذ سنة ١٩٤٨ ، على أفكار ومفاهيم وشعارات ومذاهب خاطئة قادتهم الى مواقف وتصرفات وسياسات وأعمال خاطئة انتهت بهم الى كارثة الايام الستة من حزيران ١٩٦٧ • وأول ما يجب أن نقرره هو ان « مهندسي » الافكار والمذاهب والشعارات ما كانوا ليستطيعوا اذاعتها ونشرها وفرضها على الناس لو لم يلجأوا أولا الى تعطيل حرية القول والكتابة والنشر مع سائر الحريات التي عطلها الحكم المطلق في بلاد العرب• والحكم المطلق، أكان حكما عسكريا أم حكما ثوريا أم حكم الحزب الواحد ، هو حكم مستبد يلغي الحريات السياسية جميعا ويحتكر العمل السياسي ويستأثر بالحكم وبالتفكير والتعبير جميعا •

وعندما حلت « دولة البوليس » محل « دولة القانون » ألغت الحريات الديمقراطية وساست الناس بالقوة والقهر من جهة ، وبوسائل الاعلام الحديثة من جهة ثانية •

ونلاحظ ، ثانيا ، ان العلم الحديث والتكنولوجيا قد سخرت للدولة وسائل للتوجيه ولفرض الافكار لم تتح قط من قبل لحاكم في التاريخ ، ولم يستخدم خيرا منها أدولف هتلر في أوج سلطانه ، وهو أول حاكم عصري نظمت له أجهزة الاعلام في أعلى درجة من الكفاءة وسخرت لدعوته وحكمه على أوسع نطاق •

والحاكم المطلق في الدولة الحديثة ، أو في دولة تستخدم الوسائل الحديثة للاعلام ، يستطيع أن يدخل كل بيت ، في المدينة وفي القرية ، بصوته بواسطة الترانزيستر وبصورته وصوته بواسطة جهاز التلفزيون ، وتصل كلمته مكتوبة وصورته مرسومة على صفحات الجرائد والمجلات والكتب والنشرات •

ويستطيع الحاكم المطلق باذاعاته وأجهزته والالسنة والاقلام المسخرة له أن يشغل عقول الناس أربعا وعشرين ساعة من الساعات الاربع والعشرين في اليوم الواحد ، يشغلها بالاغاني الموجهة والاحاديث والخطب والشعارات المرددة والاخبار المصنوعة .

ان طغيان وسائل الاعلام في هذا العصر هي التي دفعت مفكرا كبيرا مثل ألدوس هكسلي (Aldous Huxley) الى القول بأن دكتاتورية علمية لا تحتاج الى اصطناع الارهاب لان الارهاب قاصر ، والتلاعب بالعقول بواسطة أجهزة الاعلام أفضل من معسكرات الاعتقال ..

وهكذا يستطيع الحاكم المطلق أن يسوس الناس بالكلمة ، تلقى أو تكتب أو تغنى ، فتسحر العقول وتفتن القلوب . قلت « يسوس » الناس والواقع انه « يسوق » الناس سوقا بالعصا ، أما عصاه فالقوات المسلحة والمخابرات من جهة وأجهزة الاعلام من جهة ثانية .

ودولة البوليس هذه قادرة على أن تخنق كل صوت حر وتمنع نشر الافكار المخالفة لنظرياتها المغلقة وشعاراتها المحدودة ، وقد استطاعت بالفعل أن تفرض ارهابا فكريا على العرب عطل العقل العربي تعطيلا نتج عنه ما نرى من قحط وركود في الادب وانحطاط في الحياة العربية كلها في العقدين الاخيرين .

كيف استطاعت دولة البوليس أن تفعل كل هذا ؟

انها عمدت أولا الى أصحاب الرأي وأهل الثقافة ورجال الفكر فدفعتهم الى الهجرة يبحثون عن موارد للرزق في بلاد العرب وخارج بلاد العرب . ومن سمح له بالبقاء في بلده وصبر وكابر فرضت عليه العزلة والصمت والموت البطيء . ومن ضعف وهان تعاون مع الحاكم المطلق

ودخل في نظامه وفي شبكة أجهزته وأدوات حكمه وأصبح خادما تابعا مأجورا .

ثم توجهت دولة البوليس الى الشعب فحولته الى جمهور من الدهماء وقطيع من الغنم تسوقه بعصاها وتلقنه كل صباح وكل مساء المبتذل السخيف من شعاراتها .

الحاكم في الدولة المتمدنة الحرة يخاطب باحترام عقول المواطنين ويحاول اقناعهم بالحجة والبرهان والارقام والاحصاء . كان بركليس يخاطب عقول الاثينيين ، وكذلك كان يفعل ديموستين سيد الساسة الخطباء . وتشرشل في أثناء الحرب العالمية الثانية كان يتوجه الى عقول المواطنين والى قلوبهم الوطنية الجريئة ، يشرح لهم الواقع ويواجههم بالحقائق القاسية والصعاب والخطوب التي يجب أن يتغلب عليها الشعب بالدم والدمع والكد وعرق الجبين . والرئيس الاميركي السابق جون كندي دعا المفكرين ، في بدء ولايته ، كما دعا سائر المواطنين ليفحصوا العقائد والنظريات من جديد وليروا أميركا كما هي وعلى حقيقتها .

والفرق بعيد بين « الشعب » وبين « الجماهير » .

« الشعب » مكون من أفراد عاقلين ومواطنين مسؤولين يعرفون ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات في المجتمع الحر .

أما « الجماهير » فهي تلك الجماعات الهائمة في الطريق المتظاهرة في الساحات يقودها غوغائي كبير بلسانه ويفرقها جندي بعصاه وتتحكم فيها غرائز الدهماء أو غرائز القطيع .

ولست أتحدث عن طائفتين مختلفتين من الناس وانما حديثي عن الجماعة الواحدة في حالتين مختلفتين من الحالات . ان الجماعة الواحدة من الناس تكون « شعبا » في حالتها المتمدنة الراقية المسؤولة وتتحول

الى « جماهير » و « دهماء » و « قطيع » في طورها الهمجي . والدولة تلعب دورا كبيرا في تربية الجماعة وتثقيفها ورفعها الى حالة « الشعب » أو في الانحدار بها الى مستوى «الجماهير» حيث تتحرك الغريزة البدائية ويسود الهوى .

وقد عمل الحكم المطلق المدعو ثوريا في أكثر من بلد عربي على أن يحول « الشعب » الى جمهور من الدهماء ، وليس من قبيل الصدفة ان بعض الحكام الثوريين جعلوا يخاطبون الشعب قائلين : « يا جماهير شعبنا .. » ، فهم لا يخاطبون أفراد الشعب ولا يحاورون المواطنين المسؤولين في حالتهم المتمدنة الهادئة ليسمعوا ويعوا ويقلبوا وجوه الرأي ويشاركوا في اتخاذ القرار الحكيم . انهم يتوجهون الى « الجماهير » ويثيرون فيها غرائز القطيع ويسوقون الناس بالحقد والنقمة والخوف والرغبة . وكلامهم ترديد لشعارات مصنوعة ، كأنها السياط تلهب ظهور الدهماء . وسياسة الناس بالشعارات ظاهرة خطيرة تستحق أن يفرد لها فصل في هذا الكتاب .

سوق الناس بالشعارات

« أربع أرجل شيء صالح ، رجلان شيء طالح » .

(شعار «مزرعة الحيوان»)

في العقدين الاخيرين دخلت القاموس العربي كلمات وتعابير جديدة مستعارة منقولة من هنا وهناك ، وبدأنا نسمع حديثا معادا عن « طرح الشعارات » وعن « شعارات لهـذه المرحلة » . وكان هذا القامـوس السياسي الجديد يعكس وضعا فكريا وعاطفيا جديدا . فعندما كان الشعب شعبا والحكم شورى كان الحـاكم أو الزعيم أو المفكر « يرى رأيا » أو « يجتهد اجتهادا » ويقدم بحثا ويعرض فكرة ويقترح اقتراحا يرجـو أن يقنع بصوابه وصلاحه الناس وأن ينـال تأييد الاكثرين في المجلس والبلاد . أما في دولة البوليس فـلا مجال للشورى ولا مكان للنقاش وانما هناك أمور يقررها الحاكم في الخفاء ويخرج منها ما يشاء في صيغ مختصرة يطرحها شعارات على الجماهير تكتب وتلقى القاء أو تغنى غناء . ألم يسمع الحكام الثوريون القول المأثور : « دعني أضع للبلاد أغانيها ولا يهمني بعد ذلك من يضع لها قوانينها » (١) ؟

وبعد ، فما هي طبيعة تلك الشعارات ؟ من أين جاءت ؟ من يطرحها على الناس وبأي سلطان ؟ وما تأثيرها وفعلها ؟ وماذا تصنع بالذين يطرحونها وبأولئك الذين تطرح عليهم ؟

لقد صور جورج أورويل (George Orwell) في قصته الرائعـة « مزرعة الحيوان » (Animal Farm) تصويرا دقيقـا ساخرا دولة

---

(١) هنري فورد ، اليهودي العالمي .

تساس بالشعارات • في « مزرعة الحيوان » هذه تثور الحيوانات على صاحب المزرعة ، مالك القصر والارض ، وتطرد رجاله من المزرعة وتقيم حكما حيوانيا خالصا بقيادة الخنازير • ويتنافس على الزعامة خنزيران كبيران « نابليون » و « سنوبول » • وبعد دراسة دامت ثلاثة أشهر توفقت طبقة الخنازير الحاكمة الى تلخيص مبادىء « الحيوانية » ، وهي فلسفة الحكم الثوري ، بسبع من الوصايا كتبت على حائط المزرعة بأحرف كبيرة بارزة ، وجعلت قانونا لا يتغير وقواعد تعيش بها الحيوانات في المزرعة المثالية الى الابد •

أما الوصايا السبع فهي :

١ ـ كل من يمشي على رجلين اثنتين فهو عدو •
٢ ـ كل من يسعى على أربع أرجل أو كان له جناحان فهو صديق •
٣ ـ لا يلبس حيوان ثيابا •
٤ ـ لا ينام حيوان على فراش •
٥ ـ لا يشرب حيوان خمرا •
٦ ـ لا يقتل حيوان حيوانا آخر •
٧ ـ كل الحيوانات سواسية •

ثم ان زعيم الخنازير صرح ذات يوم بأن الوصايا السبع يمكن أن تتلخص بشعار واحد ألا وهو : « أربع أرجل شيء صالح ، رجلان شيء طالح » • وزعم ان هذا الشعار يتضمن المبدأ الاساسي لفلسفة الحيوان • وكتب هذا الشعار على حائط فوق الوصايا السبع وبأحرف أكبر • وقد أحب قطيع الغنم هذا الشعار وراحت الاغنام تردده حين تحضر الاجتماعات العامة وحين تسرح في المرعى : « أربع أرجل شيء صالح ، رجلان شيء طالح » •• تتغنى به ولا تسأم ترديده •

واستأثر الخنازير بخيرات المزرعة وثمارها ، وتغلب الخنزير الكبير « نابليون » على « سنوبول » بعد أن اكتشف خيانته وتعامله السري مع

المالك القديم • واحتل « نابليون » القصر ونام على الفراش الوثير وشرب الخمر واستعان بعدد من الكلاب تحرسه وتسهر على تنفيذ أوامره •

وكان لا بد لبعض الحيوانات النابهة كالخيل من أن تذكر الوصايا السبع ، فتذهب الى الحائط لمراجعة المبادىء الخالدة ، فاذا المكتوب على الحائط قد جرى عليه تعديل ، فالوصية الخامسة ، مثلا ، أصبحت تقرأ هكذا : « لا يشرب حيوان خمرا حتى السكر » ، والوصية السادسة : « لا يقتل حيوان حيوانا بدون سبب » •

واتهمت الخيل ذاكرتها وسلمت بالامر الواقع وبهذا الشيء المكتوب وبحكمة الزعيم « نابليون » الذي يرفع الشعار حين يشاء ويعدله كيف يشاء ويلغيه ويطرح غيره من الشعارات •

وكانت تراود بعض الحيوانات بعض الشكوك حول ما يجري في المزرعة • وحاول بعضهم أن يثير نقاشا في الاجتماع العام الذي كان يعقده معشر الحيوان بين حين وآخر ، لكن قطيع الغنم كان يرفع صوته بالشعار كلما فتح باب للبحث مرددا بلا انقطاع : « أربع أرجل شيء صالح •• رجلان شيء طالح » • وهكذا يتعطل النقاش ويتوقف البحث وينفض الاجتماع وقد ترك الامر كله بين يدي زعيم الخنازير •

ومع الايام تعلمت الخنازير أن تمشي على الرجلين الخلفيتين مقلدة بذلك عدوها الانسان ، وطرح شعار جديد للمرحلة الجديدة يقول : « أربع أرجل شيء حسن ، رجلان شيء أحسن » •

وفي آخر الايام طرح شعار آخر ألغى كل ما سبقه من شعارات • وكان هذا الشعار الجديد : « كل الحيوانات سواسية ، لكن بعض الحيوانات أكثر تساويا من غيرها •• » •

تلك حال دولة تساس بالشعارات • وهي بلا شك ظاهرة تخلف

وانحطاط ، فالشعوب الراقية لا تقاد بشعارات وصيغ كلامية وأغاني . انها تعبر عن نفسها وحاجاتها وأهدافها بفكر حقيقي وحياة حقيقية وبفعل عقل يفكر وارادة واعية تريد . الشعوب المتمدنة تناقش أمورها العامة في الاجتماعات العامة وعلى المنابر وفي الصحف وفي المجالس المنتخبة ، ويجري بعد ذلك عد الاصوات وتصبح ارادة الاكثرية قانون البلاد . هذا هو جوهر الحكم الديمقراطي حيث ينير العقل الطريق أمام المواطنين .

أما في دولة الشعارات فلا يطلب من المواطنين استعمال عقولهم ولا يؤخذ رأيهم بصورة جدية وانما يفكر الحاكم المطلق عنهم ويتخذ القرار في غيابهم ويطرح قراره عليهم شعارا تردده أجهزة الاعلام صباح مساء ويفرض على سمع الافراد وعلى أبصارهم ويستقر في العقل الباطن بفعل الايحاء والتكرار . وهذا اضطهاد فكري واستعباد للعقل ، شر استعباد على الاطلاق .

انه لا يجوز للحاكم ، ولو كان نابغة زمانه في السياسة والحرب ، أن يلغي عقول المواطنين أو يعطلها أو يستعبدها . ان الله خلق الانسان شخصا عاقلا حرا كريما مسؤولا ، وله أن يستعمل ما منحه الله لخيره وخير الآخرين .

وهذا الحاكم المطلق ، أو المفكر الرسمي للفئة القليلة الحاكمة ، من هو ، وبأي سلطان يطرح الشعار ويفرض الرأي على الناس ؟ وكيف يولد الشعار ؟

الشعار ، في أحسن الحالات ، هو تلخيص لنظرية أو سياسة أو تعبير مختصر عن رأي أو موقف عام . أي يفترض أن يكون وراء الشعار فكر وأن يكون القادة الذين طرحوا الشعار قد فكروا وقدروا ولخصوا للشعب تفكيرهم في صيغ قصيرة بسيطة يسهل عرضها ويسهل فهمها .

فهل كانت وراء الشعارات التي طرحت على أمة العرب في العقدين الاخيرين نظرية سياسية أصيلة أو فكر عربي مسؤول ؟

وطارحو الشعارات ، هل هبط عليهم الوحي أم هو الرأي والتفكير والثقافة العالية والحكمة ؟ انهم فيما نعلم لم يدعوا الوحي، ولم يتتلمذوا على مفكرين كبار في العالم من الاحياء أو الاموات الخالدين ، واذن فان تفكيرهم ، كتفكير سائر الناس ، يعرض له الخطأ والصواب . فبأي حق يفرضون تفكيرهم وحده وينكرون على سائر الناس فكرهم حين يفكرون ولا يسمحون لهم بالقول والجهر اذا ما فكروا ؟

هذا وان النتاج العقائدي الذي بين أيدينا من خطب ومقالات وبيانات وكتب لا يعكس حظا كبيرا من الحكمة أو الثقافة ، فالافكار مستعارة من هنا وهناك والآراء متناقضة وليس وراء هذا الكلام العقائدي نظرية متماسكة في السياسة والاقتصاد . وكلامهم لا يتصل بالاصول والمبادىء والاعماق ولا يرجع في التحليل الاخير الى الله والانسان والكون والتاريخ . وقد لاحظ ليونارد بايندر (Leonard Binder) في كتابه « الثورة العقائدية في الشرق الاوسط » ان الفلاسفة المحترفين في الشرق الاوسط يظلون ضمن اطار الدراسات الجامعية للفلاسفة الغربيين والاسلاميين التقليديين ، تاركين للموظفين المدنيين وللضباط العسكريين ولمعلمي المدارس الثانوية وللصحفيين أن يكتبوا رسائل ايديولوجية (١) .

ولست أنكر على بعض القادة والزعماء مواهبهم في نواح معينة من السياسة ، كما لا ينكر ان القائد أو الزعيم يستطيع ، ولو لم يكن هو على جانب كبير من الثقافة والعلم ، أن يستعين بالمفكرين والعلماء وأصحاب الثقافة في بلاده ، والاختيار الفاضل للاعوان هو من صفات الرئاسة .

(١) Leonard Binder, The Ideological Revolution in The Middle East, P. 86.

لكن الحاكم المطلق يستخدم المفكرين والعلماء كخبراء يطلب منهم هذا الذي يريده وهم لا يقدمون له خير تفكيرهم وخبرتهم وعلمهم وانما يقدمون له ما يريده أو ما يرضيه ـ وهكذا يحرم الحاكم المطلق حكمة الرجال الذين يختارهم لخدمته ، هذا اذا اختار الحكماء ، كما يحرم حكمة أولئك الذين استبعدهم أو ابتعدوا هم عنه نائين بأنفسهم عن مواضع الهوان •

وفي آخر الامر يقع الزعيم الغوغائي فريسة لغوغائيته • انه يبتدىء باخضاع السياسة للشارع ، للجماهير ، ويخضع الجماهير لدعوته وشعاراته بواسطة أجهزة الاعلام المختلفة ، ثم ترتد الدعوة والشعارات عليه وتضغط الجماهير باتجاه تلك الدعوة متسلحة بالشعارات المذكورة فيصبح الحاكم أسيرا لتلك القوة الغوغائية التي أوجدها ويغدو الموجّه والمؤثّر موجّهًا ومؤثّرا عليه وينقلب السحر على الساحر ويتبع الزعيم الغوغائي رغبات الغوغاء وكثيرا ما تقود السياسة الغوغائية الى الدمار •

ومع الشعارات التي طرحت على العرب في العقدين الاخيرين تدفق سيل من الكلام عبر الصحافة وعلى موجات الاثير ، وبعض هذا الكلام يفسد التفكير افسادا بما يحمل من باطل والتواء ، وأكثره يعطل الفكر تعطيلا بسحر البيان الفارغ • والمشهور عن العرب انهم يحبون البيان ويقدرون الكلمة الجميلة ، وقد استغلت ناحية الضعف هذه عند عرب القرن العشرين وقادهم من آذانهم السحرة الجدد أصحاب البيان وأصحاب الشعارات• وما أصدق ما قال الرسول العربي : « ان من البيان لسحرا » • لقد فتن العرب عن الحقيقة في العقدين الاخيرين وصرفوا عن الوقائع وغرقوا في بحر لا قرار له من الكلام المعاد الجميل •

ما أجمل البيان حين يرافق رفعة النفس وسمو الفكر ويكون في خدمة الحق ، ولكن ما أقبحه حين لا يطابق الحقيقة ولا يحمل بأمانة

صورة الواقع وانما يعمد الى اخفاء الحقائق ويرسل لالهاء الشعوب عن مشاكلها الحقيقية ومصالحها الحيوية فيخدرها ويسكرها بالحركة والصوت والالقاء ويقودها الى الهلاك •

لقد قيل في هذه الظاهرة منذ القديم :

ألهى بني تغلب عن جلّ أمرهم   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لشعر غير مسؤوم

الشعار المثلث والايديولوجية

« أما بالنسبة الى تغيير عقلية الامم ، فقد فات الاوان لان تتغلب أية عقيـــدة ، وخصوصا العقيـــدة الشيوعية ، على الشعور القومي » .

(ديغول)

حرية ، اشتراكية ، وحدة .

وحدة ، حرية ، اشتراكية .

مهما يختلف ترتيب الكلمات في هذا الشعار فان الثوريين في بلاد العرب مجمعون عليه وهو عندهم سيد الشعارات والشعار الذي يحدد أهداف النضال العربي كما يتصورون النضال وكما يفهمون الشيء العربي .

والمفروض أن يكون واء الشعار نظرية قومية جامعة تتلخص فيها فلسفة العرب في النصف الثاني من القرن العشرين . فما هي هذه الفلسفة ؟ ما هي تلك النظرية القومية التي خرج بها الثوريون على الناس ؟ ولمن هذه النظرية القومية ؟ الجواب على السؤال الاخير لا بد أن يكون هكذا : النظرية القومية لقومنا العرب . ولكن من العرب في نظر الثوريين ؟ ولنرسل السؤال على اطلاقه : من العرب ؟ فالبدء من هنا ومن البديهيات أضمن لسلامة التفكير وأقرب الى معرفة الحقيقة . من العرب ؟

ونحن في هذا البحث أمام مشكلة يجب الاعتراف بها والتنبيه عليها وهي اننا نحاول أن نخضع للمنطق مجموعة من الآراء والخطرات والافكار يناقض بعضها بعضا ولا تؤلف نظرية واحدة أو فلسفة تستحق هذا الاسم . أو قل انها نظرية مشوشة تتخبط وتتناقض وتستعير من هنا وتقتبس من هناك ، وتقول اليوم شيئا وتقول غدا ضده ، وترسل كلاما كثيرا ولغوا طويلا وسخفا عميقا تضيع في بحرانه حقائق الاشياء .

ونحن مضطرون ، لضرورة البحث ، الى أن نفرض شيئا من النظام والتنسيق على هذه الفوضى الفكرية العريضة ، ومضطرون الى أن نناقش نقاشا جديا أفكارا قد لا تتحمل البحث العلمي الصارم والنقاش الجدي والحساب العسير • ولكن لا بد مما ليس منه بد •

من العرب ؟

هذا هو السؤال الملح الذي يجب أن يستهل به كل بحث في القومية العربية • فكيف انتهت الى الاجابة عليه المدرسة الثورية ؟

الواقع انها لم تجب عليه اجابة واضحة ولا التزمت بتعريف ثابت ، وكان الذي فعلته ، بالوعي أو باللاوعي ، بتخطيط طويل النفس أو بتخبط نظري بعيد ، هو انها نقلت الموضوع من « العرب » و « أمة العرب » الى « القومية العربية » • وهذا الشيء المجرد « القومية العربية » تحول بعد ذلك الى مذهب عقائدي أو ايديولوجية ثورية ، كما يقولون • وكان هذا التحول في طريقة التفكير والشعور خطيرا حقا وكانت له نتائج بعيدة المدى •

ومن البديهي ان القومية العربية ليست شيئا بدون العرب • « القومية العربية » مفهوم صحيح عندما تعبر عن وجود الامة العربية ولكنها لا تعني شيئا اذا انفصلت عن الامة العربية وأصبحت فكرة مجردة مستقلة عن الواقع •

والامة العربية تضم جميع العرب في بلاد العرب ، هي كل العرب • أما « القومية العربية » ، هذا المفهوم المجرد ، هذا المذهب العقائدي ، فقد أجاز أن تنقسم الامة العربية الواحدة الى طبقات وفئات وأن يجري صراع الطبقات والفئات في الامة الواحدة كما يجري الصراع المميت بين ألد الاعداء •

في نظر « الامة العربية » جميع العرب داخلون في مجموعها • أما « القومية العربية » فقد اعتبرت بعض العرب غير عرب واعتبرت بعض العرب أعداء العرب •

ولو رجعنا الى معنى الايديولوجية نفسها لوجدنا ان استقلالها عن الواقع هو من خصائصها بما هي ايديولوجية ، أو من حيث هي ايديولوجية ، كما يقول المحدثون •

ما معنى الايديولوجية ؟

انها مذهب عقائدي يوجه حكومة أو يوجه حزبا • وهذا المذهب العقائدي هو فكر نظري يبنى تجريديا على معطياته الخاصة وهو في الحقيقة تعبير عن وقائع اجتماعية ، ووقائع اقتصادية على الاخص ، لا يعيها المفكر أو لا يعلم انها تقرر تفكيره • وهذا المعنى شائع في الماركسية • وقد عرّف الايديولوجية أنكلز (Engels) كما يلي : « هي مجموعة أفكار تعيش حياة مستقلة ولا تخضع الا لقوانينها الخاصة • ان ظروف الحياة المادية التي يحياها الرجال الذين تجري في أدمغتهم هذه العملية الفكرية ، تقرر في التحليل الاخير خط سير هذه العملية • لكن أولئك الرجال يجهلون تلك الحقيقة ولو علموا بها لكانت انتهت الايديولوجية » •

ويضيف لالاند في قاموسه الفلسفي تعريفا صريحا للايديولوجية منطويا على الاستهجان : « انها تحليل أو بحث فارغ لافكار مجردة لا تطابق الوقائع الحقيقية » (١) •

والمدرسة الثورية لم تبدأ من البدء ولم ترجع الى الاصل ، والاصل هو أمة العرب • انما جعلت منطلقها « القومية العربية » المتحولة الى

(١) انظر مادة Idéologie André, Lalande, Vocabulaire de la philosophie.

مذهب عقائدي (Ideology) بفعل التجريد ، والمتحول بدوره الى شعار .

وإذن فبالعمل التجريدي ابتعدت « القومية العربية » عن حقيقة الامة العربية وانفصل « مصطلح القومية العربية » عن الحياة العربية وناقضت الايديولوجية الثورية حقائق الوجود العربي وطبائع الاشياء .

وأمكن بهذا التجريد أن تلحق بالقومية العربية مفاهيم ومحتويات تناقض القومية ذاتها وتقسم العرب وتثير بينهم أشد الخلاف .

وقد عجب الناس لدعوة ترفع شعار الوحدة وتعمل كل شيء لتمزيق العرب .

كيف يمكن أن تنتج النظرية الصحيحة والدعوة السليمة والقومية الجامعة كل هذا الاختلاف وكل هذا الشقاق وكل هذا التمزيق في جسم الامة العربية ؟

كأن الذي حول القومية العربية الى ايديولوجية وأعطاها مفهومها الثوري وربطها بالاشتراكية وحمّلها الصراع الطبقي قد وضع فيها لغما يتفجر فيبدد الوحدة ويدمر أمة العرب .

ولو عمد الباحث الى فحص القومية العربية بمفهومها الثوري وما حملت من اشتراكية وآراء وقارنها بالوقائع والحقائق لرأى عجبا . هذا وكل نظرية اجتماعية يجب أن تمتحن بالرجوع الى الواقع لمعرفة مدى صدقها ومطابقتها لحقائق الاشياء .

ولنضرب على ذلك مثلا ..

في محادثات الوحدة التي جرت في ربيع ١٩٦٣ قال الرئيس جمال عبد الناصر للسيد ميشيل عفلق وهو يحاوره :

« بنعرف مين هو الشعب .. من هو الشعب في تعريفك ؟ عندنا في الميثاق تعريف كامل عن الشعب .. مين هو الشعب ؟ مين يا أستاذ ميشيل ؟

السيد ميشيل عفلق : « العامل بالطبع » .

الرئيس جمال عبد الناصر : « ومين ؟ »

السيد ميشيل عفلق : « الشعب العامل يعني الفلاح والعامل .. » (١)

« الشعب هو العامل والفلاح » ، هذا هو التعريف الذي اتفق عليه أقطاب العقائدية الثورية في اجتماع على أعلى المستويات عندهم . والغريب في الامر ان هذا التعريف يخرج من نطاق الشعب وبالتالي من نطاق القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر لانه ليس عاملا ولا فلاحا ، ويخرج من نطاقها أيضا الاستاذ ميشيل عفلق .

وهكذا ضاقت كلمة « الشعب » بحيث لم تشمل حتى المتحاورين ، وانها لتضيق عند الثوريين فلا تدل الا على قلة قليلة من الناس .

واذا دفعنا هذا المنطق الثوري الى نهايته فانه يفضي بنا الى نتائج سخيفة حقا ، هي من المحال عقلا (reductio ad absurdum) .

« الشعب » هو العامل والفلاح . والشعب العربي هو العامل العربي والفلاح العربي . والامة العربية هي مجموعة الشعوب العربية ، أي ان الامة العربية مؤلفة من العمال العرب والفلاحين العرب . هذا في نظر الايديولوجيين .

بهذا التعريف يخرج من نطاق القومية العربية ، آليا ، جميع الرجال

(١) محاضر محادثات الوحدة ، مؤسسة الاهرام ، ص ١١٣ .

الذين قاموا بالحركة العربية في مطلع هذا القرن وألفوا الجمعيات السرية في أواخر أيام الدولة العثمانية وكان منهم الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا وكان منهم من اشترك في الثورة العربية الكبرى وقاد النضال بعد الحرب العالمية الاولى ضد الانتداب في بلدان الشرق العربي •

ففي دراسة علمية قام بها أرنست دون (Ernest Dawn) أستاذ التاريخ في جامعة الينوي عن نشوء الحركة العربية في مطلع هذا القرن ونشرتها له مجلة (Middle East Journal) في عددها الصادر في ربيع ١٩٦٢ ، توصل الى أمور نورد منها ما يلي :

١ ــ القوميون العرب كانوا يؤلفون النخبة العربية •

٢ ــ القوميون العرب خرجوا من عائلات الطبقة العليا •

٣ ــ وساهم معهم عناصر من الطبقة الوسطى •

٤ ــ القومية العربية لم تكن وليدة صراع طبقي • فالقوميون العرب والسوريون العثمانيون كانوا في أغلبيتهم الساحقة من الطبقة السورية العليا •

هذا ما قرره الاستاذ الباحث بدراسة علمية أخضعها للاحصاء الدقيق ، فكيف يستقيم منطق يضع خارج القومية العربية رواد القومية العربية وأعلامها ومفكريها وشهداءها وزعماءها وقادة نضالها طوال نصف قرن من حياتها أو ثلثي هذا القرن العشرين ؟

ان هذا النمط من التفكير الايديولوجي يوقع أصحابه في « قياس الخلف » (Syllogisme par l'absurde) ، كما يقولون في علم المنطق ، وينتهي بهم الى سخف القول •

وكيف لا يكون سخيفا منطق يضع خارج القومية العربية الشهيد

عبد الحميد الزهراوي ، ويضع خارج نطاقها شكري القوتلي الذي أعلنه نظام الوحدة « المواطن العربي الاول » ؟

كيف يكون شهيد القومية العربية غير عربي وكيف يكون مواطنها الاول غريبا عنها ؟

ولا يقتصر الامر على رواد القومية العربية وشهدائها ومادة نضالها وانما يبعد الاجتهاد الثوري عن « الشعب » وعن « القومية العربية » فئات كبيرة هي في بعض الاماكن والاقاليم كثرة الشعب •

لنأخذ بلدا عربيا عريقا مثل دمشق • ان أكثرية أهل دمشق من الطبقة الوسطى ، من أصحاب « الدكاكين » ، فهل هم من « الشعب » ؟ واذا لم يكونوا من الشعب وهم كثرة الناس وأعرب الناس فمن هو الشعب في دمشق ومن هم العرب في بلاد العرب ؟

هذا شيء عن « الامة العربية » التي تحولت بالتجريد الى « قومية عربية » وايديولوجية ثورية ، وعن مفهوم « الشعب » عند الثوريين • وبعد فما هي الصلة بين القومية العربية وهذا الشعار : وحدة ، حرية ، اشتراكية ؟

يقول ميشيل عفلق في كلام له عام ١٩٥٥ : « ليس تعريف العروبة وحده كافيا • ولكن الشيء الاساسي في الموضوع هو اننا فسرنا قوميتنا بالاشتراكية وبفكرة الحرية • هذه هي الضمانات الحقيقية في الواقع عندما تكون القومية ملازمة للاشتراكية أو الاشتراكية ملازمة للقومية » (١) •

لنبحث أولا في موضوع الحرية ، فهي الكلمة ــ المفتاح في هذا الشعار أو يجب أن تكون كذلك ، لان الحرية تأتي أولا فتختار الوحدة

---

(١) في سبيل البعث ، دار الطليعة ، ص ٩٥ •

أو لا تختارها وتأخذ بالاشتراكية أو لا تأخذ بها • فما هي الحرية في نظر الثوريين ؟ وكيف تتحقق ؟

الحرية عند الثوريين هي شعار يرفعونه ثم لا يعنون بعد ذلك بمعنى الحرية ولا يعنون بتطبيقها • وقد قال جمال عبد الناصر في محادثات الوحدة وهو يخاطب أساتذة البعث : « بالنسبة للبعث مثلا •• ما اتقالش البعث رأيه في الحرية أبدا •• يعني أنا قريت كل ما كتب البعث •• لا يوجد تحديد للحرية ولا للديمقراطية ولا للاشتراكية • يوجد فقط شعارات » (٢) •

وقال أيضا : « حزب البعث في طوال الخمسة عشر سنة اللي فاتت •• أو عمره •• لم يعرف الحرية تعريف واضح •• وقريت كل حاجة اللي اتتوا كاتبينها في الكتب •• ودورت على تعريف الحرية بحيث ان حد ياخد عليكوا هذا التعريف ويمسكه •• ما لقيتهوش أبدا •• » (٣)

هذا من حيث التفكير النظري ، فكيف كان التطبيق العملي ؟ لعلنا نستنتج من التطبيق ما عجز عن ايضاحه الفكر • ماذا صنع حزب البعث بالحرية في البلاد التي حكمها وفي أثناء حكمه ؟ مرة أخرى نستدعي شاهدا من أهله يشهد ، فأصحاب البيت أدرى بالذي فيه ، وأمين سر البعث الدكتور منيف الرزاز يعلم ماذا صنع حزبه بالحرية في بلاد الشام وهو في أمانة السر من الحزب الحاكم •

كتب الرزاز في « التجربة المرة » يقول : « •• مجال السياسة الداخلية كان مفتوحا على مصراعيه لكي يثبت البعث انه حزب الجماهير وحزب الكادحين وحزب الحرية ، وأن يكون قدوة للحكم التقدمي الذي يثق بالشعب ، وأن يثبت ، عمليا ، الفرق بين نظامه ونظام الوحدة

(٢) محاضر محادثات الوحدة ، ص ٨٢ .
(٣) محاضر محادثات الوحدة ، ص ٩٤ .

البيروقراطي المباحثي ، ويعطي بذلك على الاقل ، مبررا لاستمرار انفصاله ، لا سيما وان القضايا الاهم التي أخذها الحزب على حكم الوحدة هي ، كما قلنا ، حله للحزب ، بيروقراطيته ، ومباحثيته ، وقطريته ، وبالتالي موقفه من حريات الجماهير وتنظيماتها •

« لكن طابع الحكم كان دائما طابع حكم عسكري مباحثي ، يستند الى أجهزة القمع أكثر بكثير من استناده على ثقة الجماهير به وثقته بالجماهير • وعلى رغم ان الحكم كان ينادي بأنه حكم الجماهير ، وحكم العمال والفلاحين ، فقد كانت الجماهير تعلم ، لكثرة ما عانت من ألوان الحكم في الماضي ، انها تعيش في ظل حكم عسكري مباحثي ، وان السلطة الحقيقية هي بيد ضباط الجيش والمخابرات •

« وكيف يمكن أن يقتنع الشعب بأن هذا الحكم حكمه ، حين يعلم ان الذي يحكم فعلا هو فئة من ضباط الجيش ، وحين يرى الضباط وقد شكلوا طبقة خاصة متميزة ، تتمتع بشتى أنواع الامتيازات ، وان ثمة محافظات أو مدنا أو دوائر حكومية يسيطر عليها فلان أو فلانا من ضباط الجيش أو المخابرات ، فلا يجري فيها أمر الا بموافقته ، حتى لكأن الحكم حكم ملوك الطوائف ، لكل ملك قطعة من جهاز الدولة يتصرف بها كما يشاء ؟ وان رجل المخابرات يتمتع بسلطات لا حد لها ، وان من المصلحة أن تداريه وأن تنافق له حتى لا تتعرض لغضبه وبطشه ••

« وكيف يمكن للشعب أن يقتنع بأن هذا الحكم حكمه وهو يعلم انه ليس له طريق ، أي طريق ، لايصال رأيه الى الدولة ، فضلا عن اشتراكه في حمل المسؤولية التي يتولاها بضعة عشر رجلا في رأس الدولة ، يأمرون وينهون ، في غرف مقفلة ، لا يطلع الشعب على ما يدور فيها الا من خلال ما يصدر عنها من أوامر وتعليمات وقوانين ؟ » (١) •

(١) الدكتور منيف الرزاز ، التجربة المرة ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

هذا شعار الحرية في النظرية والتطبيق عنـــد حزب البعث ، وهو نموذج لما حصل للحرية في البلاد التي حكمتها الانظمة الثورية في البلاد العربية في العقدين الاخيرين ، وهو تكرار لما يحدث عادة في ظل الانظمة الثورية في العالم ، في مراحلها الاولى على الاقـــل ، وما زال صـــدى كلمات مدام رولان يتردد في التاريخ :

« أيتها الحرية ! أيتها الحرية ! كم من الجرائم ترتكب باسمك » .

الحريّة بدون أحرار

« حاولنا أولا أن نكـــون أحرارا ، والتمسنا السعادة في المقام الثاني » .

(بركليس)

رأينا فيما تقدم كيف تصور الثوريون القومية العربية بدون عرب ، وكذلك فعلوا بالحرية فرفعوها شعارا مدويا بدون حريات وبدون أحرار. ولسنا نلعب بالكلمات ونصيغ الجمل البارعة ، لكن الثوريين الذين لعبوا بالقيم وأفرغوا الكلمات الكبيرة من معانيها وقالوا شيئا وفعلوا ضده هم الذين جعلوا لاقوالنا الغريبة والمتناقضة في الظاهر معنى حقيقيا واقعا . كيف تكون الحرية بدون أحرار ؟ الواقع انها تكون بالاحرار أو لا تكون.

والاحرار في الوطن الحر هم المواطنون جميعا يتمتعون بحقوق الانسان التي انتهت الى الاعتراف بها الانسانية الراقية وكرستها في الاعلان العالمي الصادر عن الامم المتحدة منذ عشرين سنة . وتقوم هذه الحقوق على أساس الاعتقاد بأن الناس جميعا خلقوا أحرارا متساوين في الكرامة وان خالقهم منحهم حقوقا طبيعية متأصلة فيهم لا تنتزع ، منها حق الحياة وحق الحرية وحق طلب السعادة .

وتضمن هذه الحقوق في الدول الحرة نصوص صريحة في دستور البلاد ومؤسسات حرة تراقب تطبيق الدستور والقوانين . في طليعة هذه المؤسسات مجلس منتخب من الشعب كله يراقب ويحاسب الحكومات ويمنحها الثقة وينزع منها ثقته حسب مصلحة البلاد كما تراها الاكثرية في المجلس والبلاد . والى جانب المجلس صحافة حرة لها حق النشر والتعبير والنقد ، وأحزاب تتألف وتجتمع وتؤيد أو تعارض بحرية تامة ، وقضاء يسهر على تطبيق القوانين بدون أي تدخل من خارج القضاء .

وخلاصة هذا كله ان كرامة الانسان تقضي بأن تكون له حقوق يصونها الدستور وتحترمها الدولة . والدولة بدورها خاضعة لسيادة القانون ، ولا حرية الا في دولة القانون .

فأين الثوريون من هذا الاصل في السياسة والحكم ؟

قد يقال ان الحرية مبدأ من مبادىء الثوريين انطلقوا منه ، لكن أمورا كثيرة اعترضت طريق سيرهم فانتهت بهم الى الاستبداد والطغيان . هذا ما يحاول أن يقوله الدكتور منيف الرزاز في « تجربته المرة » . وهذا ما حاول أن يعتذر به الاستاذ صلاح البيطار في بيان أعلن فيه استقلاله عن حزب البعث العربي الاشتراكي (١) .

لكن الباحث لا يستطيع أن يفصل المقدمات عن نتائجها المحتومة ، كما لا يستطيع أن يلغي الصلة الطبيعية التي تقوم بين تعليم المعلم وسلوك التلميذ .

ولعل القارىء يذكر حديث سقراط عن السفسطيين الذين كانوا يعلمون شباب أثينا الخطابة والبيان . فقد اشتكى أولئك المعلمون من تلاميذهم وانهم لا يدفعون لهم أجورهم ، فلما انتهت هذه الشكوى الى مسامع سقراط قال : وهذا دليل آخر على انهم لم يكونوا معلمين صالحين ، اذ لو أحسنوا تربية تلامذتهم لكانوا دفعوا لهم أجورهم .

الاستبداد والطغيان والنظم الدكتاتورية ليست أشياء عارضة على حكومة الثوريين . ان تعاليم البعث ، مثلا ، وآراء مؤسسيه تقود بالضرورة الى الاستبداد والطغيان . تلك البذور أعطت تلك الثمار . وان الذين خفيت عليهم البذور التي ألقاها الزارعون منذ عشرين عاما يتعرفون الآن الى حقيقتها في الثمار ..

(١) « النهار » ، ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ .

« .. من ثمارهم تعرفونهم » ..

وتلك المقدمات أدت الى تلك النتائج .

فما هي تلك المقدمات ؟ ما هي تلك البذور ؟

اليك ، أيها القارىء ، نماذج منها ، على سبيل المثال :

« البعث هو قدر الامة العربية » .

« ان عقيدة البعث لا يمكن الوصول اليها بالعقل ولكن بالايمان وحده » .

« ان القدر الذي حملنا رسالة البعث أعطانا الحق في أن نأمر بقوة ونتصرف بقسوة » .

« ان البعث هو الطليعة وعلى الجماهير أن تمشي وراءها » .

« الانقلابيون صورة سباقة لمجموع الامة : اننا نعرف بأن هذه الفئة القليلة من الانقلابيين الذين تضمهم حركة البعث العربي ، هم قلة في الظاهر ، قلة في البدء ، ولكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغرة وسباقة لمجموع الامة . نحن نمثل مجموع الامة الذي لا يزال غافيا منكرا لحقيقته ، ناسيا لهويته ، غير مطلع على حاجاته ، نحن سبقناه فنحن نمثله .. » (١) .

« فالانقلاب اذن طريق ، طريق الى الغاية المنشودة ، الى المجتمع السليم الذي ننشده .. ولكنه ليس طريقا من الطرق ، انما هو الطريق الوحيد » (٢) .

من هذه الافكار المتناثرة في مقالات « في سبيل البعث » ومن قراءة المقالات كلها ومن مراجعة كتاب « التجربة المرة » يستطيع الباحث أن

(١) في سبيل البعث ، ص ١٧١ .
(٢) في سبيل البعث ، ص ١٧٧ .

يستخلص الامور التالية :

١ ــ « البعث » في نظر أقطابه ومؤسسيه حركة فرضهـا القدر • وهذا القدر المبهم الغامض في كلامهم قد يكون مثل القدر الذي استنجد به موسوليني في شعاراتـه الاولى : « الفاشستية هي قـدر الامـة الايطاليـة » •

وقد يكون فيه شيء مـن معنى الحق الالهي والعناية الالهية عنـد هتـلر •

وقد يكون قريبا مما قصد اليـه تروتسكي حين قال ان الحـزب (الشيوعي) لا يخطىء لانه تجسيد للحتمية التاريخية •

وسواء أكان هذا الشيء الغامض قدرا فاشستيا أم حتمية تاريخيـة أم عنايـة الهية فان قدر البعث يفرضـه على العرب دون رأي العرب واختيارهم أو الرجوع الى ارادتهم • قدر من فوق يقدر ويقرر وعـلى الشعب أن يتبع ويسمع ويطيع •

٢ ــ رسالة « البعث » غير خاضعة للعقل وانما هي فعـل ايمان • أي ان الفرد يؤمن برسالـة البعث كما يؤمن الانسان بالله وبالرسـل والكتب واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من عند الله • هي كالفاشستية التي وصفهـا موسوليني : « الفاشستية لا تناقش •• لكنها تـدرك بالاحساس » •

٣ ــ القلة التي آمنت برسالة البعث هي نخبة أو ارستوقراطية مـن نوع جديد • الارستوقراطية القديمة كانت تقوم على امتيـاز النسب أو المال • وهناك أرستوقراطية المواهب والفضائل • لكن أرستوقراطية البعث هي أرستوقراطية ايديولوجية ، ان صح هذا التعبير • فالمنتمي الى حزب الطليعة لا يبني امتيازه على المجد الموروث أو الثروة القديمة أو الموهبـة

أو الكفاءة أو الفضيلة أو العلم وانما يصبح من الطليعة ومن النخبة ومـن الارستوقراطية الجديدة بمجرد اعتناقه لايديولوجية الحزب •

هذه الصفوة المختارة ، هذه الارستوقراطية هي « الامة المصغرة » ، وهي « أمة الانقلاب » (١) على حد تعبير ميشيل عفلق •

٤ ــ ان هذا الامتياز الايديولوجي يخول البعث أن يأمر ويتصرف ويحكم وينفرد بالامر والتصرف والحكم • وشعارات البعث في هـذا الموضوع منقولة نقلا حرفيا عن شعارات الفاشستية : « ان القدر الذي حملنا رسالة الفاشستية أعطانا الحق في أن نأمر بقوة وتتصرف بقسوة » •

« ان الفاشستيـة هي حكم الصفـوة المختارة وعليها أن تقـود الجماهير » •

أما بأي حق وبأي سلطان تحكم القلة وتأمر فقـد أجاب على هذا التساؤل فلاسفة النازية حين زعمـوا ان الزعيم هتلر لا يمارس سلطة شخصية مثل أي دكتاتور آخر وانما يتمتع بسلطان علوي ما دام يعبر عن ضمير الشعب الالماني أعمق تعبير وأصفاه •

٥ ــ هذا « التمييز العقائدي » هو شر مـن التمييز العنصري أو التمييز الطبقي كما بيَّن جيلاس (Milovan Djilas) في كتابه « الطبقة الجديدة » • فالطليعة أو النخبة هي فكرة أرستوقراطية، طبقية ، استبدادية لانها تقيم نفسها طليعة وتفرض نفسها نخبة يحق لها أن تأمر وتحكم •

والتمييز العقائدي يخول « أمة الانقـلاب » الممتازة ، أو الحزب الانقلابي ، أن يفرض حكما مطلقا على الابدان وعلى العقول أيضا ، وهذا شر أنواع الطغيان •

والطغيان يبتدىء من هنا ــ يفرض الحزب الاوحد المختار أفكـاره

(١) في سبيل البعث ، ص ١٥٢ .

ويحرم سائر الافكار ، ويفرض أسلوبه في الحكم ويستبعد كل أسلوب آخر ، ويتسلم كـل السلطات ويسوّد أعضاء الحزب ويسحق سائر المواطنين ـ يقتل من يقاوم ، يشرد من لا يرضخ ويعامل الشعب المستكين كقطيع من الغنم .

فالانقلابيون ، كما يمثلهم حزب البعث ، ينطلقون من موقف هو في الاساس مناقض للحرية . ان الذي يبدأ بالتمييز بين الناس فيصنف بعضهم فئة مختارة وطليعة ممتازة تحمـل رسالة ويحـق لها أن تحكم فانه ، بمجرد هذا التمييز ، يحرم سائر الناس من حقهم في أن يشاركوا في الحكم وينال من كرامتهم اذ يضعهم في منـزلة هي دون منزلة القلة الممتازة الحاكمة ويصنفهم مواطنين من الدرجة الثانيـة ، هذا اذا عدهم مـن المواطنيـن .

هذا موقف لا ينطوي على احترام للشعب أو احترام للانسان .

وهل من المصادفة ان الشعار المثلث خال من المساواة ـ ذلك المبدأ العزيز على أصحاب الثورة الفرنسية ؟

انه لا يؤمن بالحريـة من لا يؤمـن بالانسان وكرامة الانسان . فالانسان ـ كل انسان ـ يولد حرا متساويا في الحق والكرامة مع سائر النـاس .

كتب فيلسوف الحرية جون ستيوارت ميل يقـول : « لو ان البشر جميعا ، باستثناء فرد واحد ، رأوا رأيا ورأى شخص واحد رأيا مخالفا ، لما حق للبشر مجتمعين أن يسكتوا ذلك الفرد ، كما انه لا يحق للفرد ، لو ملك القدرة ، أن يسكت جميـع البشر ، وان عملهم لا يكون لـه ما يبرره أكثر من عمله » .

هذا هو موقف الاحرار من الحرية . فاذا صـادرت حرية انسان

واحد ، بغير حكم قضائي في دولة القانون ، فقد هدمت المبدأ الذي تقوم عليه الحرية وفتحت الباب واسعا أمام مصادرة حريات الآخرين وفـي جملتها حريتك أيضا . بهذا المعنى اذا صادرت حرية انسان واحد فكأنك صادرت حريات الناس جميعا .

وقد صـادر الثوريون حريات النـاس جميعا باستثنـاء أفراد أرستوقراطيتهم العقائدية الجديدة . القلة الضئيـلة من الناس صادرت حريات الكثرة الكثيرة في المجتمعات الثورية .

ويتساءل الامين العام السابق لحزب البعث كيف لا تكون الحريـة للعمال والفلاحين والطلبة والمثقفين والثوريين ؟ يطرح هذا السؤال بعـد أن يقرر : « ان الحرية في الثورة الاشتراكية القوميـة ليست للاقطاعيين وللرجعيين وللمتآمرين على الثورة .. » . ويقول بعد ذلك : « الحريـة في الثورة لا تنحصر في نطاق الحريات الفردية . ولكن ألا يجب أن يكـون هناك حريات « جماعية » ، للطبقات المستفيدة من الثورة ؟ » (١) .

الحرية اذن ليست للانسان وليست للفرد وانما هي في نظر الثوريين للطبقات المستفيدة من الثورة .

بهذا المنطق خرجت من صفوف البعث الحاكم في الشام فئة اعتبرت الجيل المؤسس للبعث مـن الرجعيين اليمينيين وأقصتهم عن الحكم وحرمتهم حقوق المواطن وحقوق الانسان . فكيف يحق للرزاز أن يشكو قسوة منطق برر به حكم البعث وانفراده بالسلطة دون سائر المواطنين ؟

بهذا المنطق صادر الثوريون حريات سائر المواطنين ، وبالمنطق نفسه بطش الثوريون بالثوريين وصادر الانقلابيون حريات رفاقهم الانقلابيين .

وقفنا طويلا عند معنى الحرية لانه مفتاح الامر كله والمبدأ الاساسي

(١) الدكتور الرزاز ، ص ١٠٣ .

الذي هدمه الانقلابيون في بلاد العرب وبدأوا يتخبطون وتتخبط معهم البلاد .

وليس أدل على عدم أخذهم الحرية أخذا جديا من ربطهم اياها بالوحدة والاشتراكية في شعارهم الاعلى . فاذا كانت الحرية تعني حرية الاحرار وكان العرب أحرارا في التفكير والاختيار فقد يختارون الوحدة شكلا لاجتماعهم وقد يفضلون الاتحاد وقد يؤثرون تطوير جامعة الدول العربية أو انشاء سوق عربية مشتركة . ولهم أيضا أن ينصرفوا عن الوحدة والاتحاد ويختاروا العيش في دول شتى تتعاون كما تتعاون الدول الصديقة أو القريبة أو التي تنتمي الى تقليد واحد وتراث مشترك .

والعرب الاحرار قد يختارون النظام الرأسمالي تحت اشراف الدولة، وقد يستحسنون الاقتصاد الموجه ، وقد يجدون المصلحة والخير في انشاء دولة الخدمات The Welfare State أو دولة الرخاء .

واذن فان المدرسة الثورية التي فرضت على العرب الوحدة والاشتراكية قد عطلت حريتهم في اختيار دستور حياتهم السياسية وفي اختيار نظامهم الاقتصادي . انها ألغت الحرية منذ البدء وسارت على درب الطغيان اذ اختارت عن العرب الوحدة شكلا لاجتماعهم واختارت الاشتراكية نظاما لاقتصادهم وحياتهم الاجتماعية ، وذهبت في الاستبداد الى فرض نوع من أنواع الاشتراكية هي الاشتراكية العلمية أي الاشتراكية الماركسية ، وربطت الوحدة القومية بالاشتراكية العلمية وجمعت في شعارها المتناقضات وعطلت بالاشتراكية فعل القومية كما ألغت الحرية بما فرضت من وحدة واشتراكية .

وهذا كله يقتضي شيئا من التفصيل نحاول أن نقدمه في ما يأتي من الحديث .

الوحدة التي غُلِطَ بها

« ان وجود أمة واستمرارها ، معناه ان استفتاء يجري كل يوم » .

(رينان)

ليست الوحدة قيمة مطلقة • وليست غايـــة في حد ذاتها • وقد أسرف العرب على أنفسهم حين اندفعوا وراء شعار الوحدة المطلقة وغالى الثوريون عندما وضعوها في منزلة واحدة مع الحرية • الحرية هي الغاية العليا للسياسة وهي الهدف الارفع • أما الوحدة فليست غاية الغايات ولا تطلب لذاتها وانما تطلب لغايات أبعد منها وأعلى وأرفع في مراتب القيم • تطلب الوحدة وترجى دولة العرب من أجل الانسان العربي — من أجـل حريته وكرامته وسعادته • الوحدة العربية من أجل الانسان العربي والدولة من أجل الانسان •

هذا أصل في موضوع الوحدة ، أية وحدة ، وفي الحياة القومية على اطلاقها • ولقد قرر لوك John Locke مبدأين أساسيين هما أولا ، ان الفرد وحريته وكرامته وسعادته تبقى دائما العناصر الاساسية لكل حياة قومية ، وثانيا ، ان حكومة أمة من الامم هي أمانـــة تعتمد على رضـا المحكومين واختيارهم •

وأوضح روسو Rousseau بأن أرستوقراطية المولد والمـــواهب لم تعد تقف في وسط الامة لتعطيها قوة واتجاها وانما هذا شأن الشعب نفسه والشعب هو جميع المواطنين • وان الاساس الوحيد الاخـــلاقي والعقلي للدولة هو المشاركة الفعالة بين مواطنين أكفاء متساوين يربطهم شعور اخاء وولاء متبادل •

وتطبيق هذه الاصول والمبادىء الاساسية على موضوع الوحدة العربية يخولنا القول بأن الوحدة العربية المرجوة تفترض وجود أمة عربية متفقة على قيم الحياة وترغب شعوبها الحرة في حياة مشتركة •

ينبغي اذن أن يكون هناك اتفاق مبدئي بين العرب على أمرين : الامر الاول هو في الجواب على السؤال الاساسي : من نحن ؟ والامر الثاني هو في الجواب على السؤال الآخر الهام : ما هي الحياة المرغوبة التي نريد أن نعيشها ؟ انه لا بد ، قبل التقدم الى انشاء الوحدة العربية ، من أن تعرف الامة العربية نفسها وتعرف ماذا تريد• لا بد للامة من نظرية في الحياة توجه سياستها • فان قيام الوحدة واستقرار الحكم وولاء المواطن ــ هذه كلها تتوقف في التحليل الاخير على قبول المواطنين لتلك النظرية وعلى اشتراكهم فيها •

فاذا لم يكن العرب متفقين على هويتهم وعلى قيم يعاش بها وغايات تحسن بها الحياة وتسعد وتطيب ، بكلمة أخرى ، اذا لم يكونوا متفقين على طريقة في الحياة عربية ، فلا فائدة من الجري وراء وحدة آلية مصطنعة مفروضة تضم الاحرار والعبيد والسعداء والتعساء كما كانت الامبراطوريات القديمة تضم الامم والشعوب والقبائل وليس بينها مشاركة حقيقية ولا هي تؤلف مجتمعا واحدا •

شرط الوحدة العربية اذن الاتفاق بين العرب على قيم مشتركة وعلى طريقة في الحياة عربية مرغوبة • هذا هو الرباط المقدس الذي يجمع بين المواطنين وهو أوثق وأرفع وأقوى وأبقى من أي رباط آخر ومن أي دستور مكتوب أو زعامة مشتركة أو قوة مسلحة تحقق الوحدة الآلية وتحميها الى حين • وهذا معناه ان دولة الوحدة تقوم على اجتماع قلوب المواطنين وعلى اجتماع عقولهم •

وقد أهملت المدرسة الثورية القيم العربية الاصيلة ولم تبحث عن

مثل عليا وغايات جديدة ترضاها الامة العربية وتعيش بها • ركزت كل اهتمامها على مناهج ايديولوجية ومذاهب غريبة عن روح الامة العربية وأخلاقها وقيمها التي عاشت بها جيلا بعد جيل • مناهج ايديولوجية ومذاهب جعلت الشعب الواحد أمما شتى ، فكيف تستطيع أن تجمع الشعوب العربية في دولة قومية ؟

لقد أخطأ الثوريون الغاية ، وهي الحياة العربية الحرة الكريمة السعيدة ، وجعلوا الوحدة ، وهي وسيلة ، غاية الغايات • هذا أولا •

وكان الخطأ الثاني في فرض شكل الوحدة واستبعاد الاتحاد والحلف وسائر أشكال التعاون وصيغ التنسيق • وأهملت الجامعة العربية كأداة للتوحيد ولم يجر تطويرها في اتجاه الاتحاد ولم يعمل جديا لانشاء سوق عربية مشتركة •

ثالثا ، أراد الثوريون تحقيق الوحدة بالسرعة السريعة وبدون تمهيد ودراسة وتحضير وسلكوا الطريق المختصرة ، فجاءت الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ أقرب الى ضربة حكم منها الى الاجتماع والتشاور والرضا والاختيار • وذهبت كذلك بضربة حكم • وقيل في التعليق على الانفصال الذي قامت به عناصر من الجيش السوري في أيلول ١٩٦١ : الجيش أعطى والجيش أخذ ، الجيش وحّد والجيش فصل ••

رابعا ، رفعوا شعار الوحدة جامعة شاملة من المحيط الى الخليج • وهذا مطلب جليل وطموح نبيل وغاية قومية ، ولكن لا بد للغاية التاريخية الكبيرة من أن تتهيأ أسبابها • وكثيرا ما يكون المطلب المستحيل التحقيق في حقبة معينة من التاريخ عدوا لما يمكن تحقيقه في الحال •

وقد حوربت وحدات طبيعية ومحاولات متعددة ممكنة التحقيق في الاجل القريب باسم الوحدة الكبرى • وحال الجري وراء الحلم الكبير

دون العمل التوحيدي المجدي الذي تساعد عليه الظروف الجغرافية والظروف الاجتماعية • وكان باستطاعة الوحدات الطبيعية الصغرى أن تكون مقدمات على طريق الوحدة الكبرى المنشودة • وماذا يضر العرب لو قام اتحاد بين دول المغرب العربي وقام اتحاد آخر بين دولتي وادي النيل ــ مصر والسودان ــ وقامت وحدة ثالثة بين دول سورية الطبيعية والعراق ، ووحدة رابعة في شبه الجزيرة العربية ؟

وهل أضر الملك عبد العزيز آل سعود بالقومية العربية ، وهل أضر قضية الوحدة الكبرى بعمله التوحيدي في شبه الجزيرة العربية فقامت دولة واحدة حيث كانت أربع دويلات ــ نجد وشمر وعسير والحجاز ــ دولة واحدة تمتد من البحر الاحمر الى الخليج العربي وتشتمل على تسعة أعشار شبه الجزيرة كلها ؟

ان الوحدات والاتحادات الجزئية يمكن أن تكون تحقيقات هامة على طريق الوحدة الكبرى وتمهيدا لها وتقريبا ليومها • وقد قال بهذا الرأي بعض رواد القومية العربيةفي مطلع هذا القرن وردد هذا الرأي بعد النكسة مفكرون من المشرق العربي ومن المغرب نذكر منهم على سبيل المثال السيد علال الفاسي • قال في حديث له مع موفد « الحياة » : « انه من الضروري أن يصفي العرب عاجلا كل الخلافات القائمة فيما بينهم وأن يكوّنوا اتحادات جبهوية تتضمن مثلا وحدة العراق والاردن وسورية ، ثم السعودية واليمن والجنوب العربي ، والعربة المتحدة والسودان ، ودول المغرب العربي كمقدمة لوحدة عربية شاملة » (١) •

خامسا ، أسيء الى موضوع الوحدة عندما ربطت بالنظم الثورية في البلاد العربية وعندما اتخذت الثورة طريقا الى الوحدة • والوحدة

(١) « الحياة » ، ١٦ آب ١٩٦٧ •

القومية لا تلتزم بنظام حكم معين وقد صنع وحدة فرنسا القومية ملوك فرنسا وحافظت الجمهورية على تراث الملوك •

كما ان الوحدة القومية لا ينفعها التقيد بايديولوجية غير الفكرة القومية • وقد رأينا كيف ان الخلافات الايديولوجية جعلت تعاون العرب ضمن جامعة الدول العربية وفي مؤتمرات القمة أمرا عسيرا ، فكيف تكون الايديولوجية الثورية ممهدة للوحدة ؟

ونستطيع أن نقرر بأن الايديولوجية الثورية عملت في اتجاه معاكس للوحدة • ولم يستطع الثوريون الذين يرفعون شعارات واحدة في مصر وسورية والعراق والجزائر تحقيق وحدة فيما بينهم أو اتحاد أو انشاء مؤسسات تعاون منظم ومستمر •

ولما كانت النظم الثورية نظما كلية شاملة فقد بدت الوحدة العربية وكأنها تحمل معها أوزار الحكم الدكتاتوري وكل مساوىء الحكم الاستبدادي المطلق • فبينما كان الشعار يجمع الوحدة والحرية كان التطبيق العملي يفرض الحكم المطلق على دولة الوحدة في مصر والشام بين ١٩٥٨ و ١٩٦١ • وفقدت الوحدة مزاياها القومية وصفتها الشعبية وسماتها البهية حين غدت سلاحا سياسيا عقائديا في يد الدولة المستبدة ــ أي في يد الفئات الانقلابية الحاكمة ــ لا مطلبا شعبيا وهدفا قوميا مرده الى الارادة العامة •

سادسا ، والى جانب أوزار الحكم المطلق حملت الوحدة فيما حملت وزرا آخر هو النظام الاقتصادي القائم على الاستيلاء والمصادرة والتأميم واخضاع الحياة الاقتصادية كلها لبيروقراطية الدولة وقتل المبادرة عند الفرد وما يحفزه للانتاجوالابداع • ولو لم تقم السوق الاوروبية المشتركة على الاقتصاد الحر لما قامت السوق أصلا ولا أعطت النتائج الباهرة في

عشر سنين من رفع مستوى الحياة في الدول المشتركة ومن نمو مضطرد وازدهار منقطع النظير ٠

سابعا ، كذلك أسيء الى موضوع الوحدة العربية حين أريد لهـا أن تقوم على أساس ايديولوجية ثورية جاءت مع النظام الثوري والنظام الاقتصادي لتعطي معنى جديدا مستحدثا للقومية العربية ٠ ولعلنا نلخص الامر كله بقولنا ان الوحدة العربية طرأ عليها تغيير كبير عندما دخل عليها المفهوم الثوري للقومية العربية ٠ وفي اعتقادنا ان المفهوم الثوري للقومية العربية يختلف اختلافا أساسيا عن المفهوم التقليدي الاصيـل الذي تطور مع تطور الحياة العربية وتقدم مع الفكر العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ٠ فما هو المفهوم الثوري للقوميـة العربية ؟ وما هي صورة القومية العربية التي رسمها الثوريون على آفاق الحياة العربية في العقدين الاخيرين ؟ ثم ما هو المفهوم الاصيل للقوميـة العربيـة ؟

القوميّة والمحتوى

« وليس للعروبـــة سابق تصميم يتناول جميع الامور والظروف والحالات التي ستطرأ يوما من الايام ، ولا دستور يحتوي جميع الفكر الجديدة التي ستنشـأ في المستقبل وليس لها شكل نهائي مطلق ٠٠٠ وقـد رفعنا لواءها عاليا في التاريخ لاننا ، في أروع أيامنا ، رحبنا بمختلف الآراء والافكار ، فلم نفرض عقيدة معينة على العربي ، ولم نخصص لرجال الفكر والمجددين بيننا منفى يرسلون اليه » ٠

(نبيه فارس)

عندما بدأ العرب يفكرون تفكيرا قوميا في مطالع هذا القرن كان حديثهم ينصب على « الامة العربية » وكانت الامة العربية تضم جميع العرب في بلاد العرب . وكان الحديث يجري وينحدر من التاريخ العربي وينبع من الواقع العربي . ثم جاء التجريد والحديث الايديولوجي فحوّل « الامة العربية » الى « قومية عَربية » وتحولت « القومية العربية » الى مذهب عقائدي والمذهب العقائدي اتخذ أساسا لتعريف العرب من جديد .

بهذا التجريد البعيد والحيلة الفكرية أفرغت « القومية العربية » من مادتها الاساسية ، ألا وهي أمة العرب .

« الامة العربية » لها وجود حقيقي ، وجود قومي ، وجود ناس ، من الناس ، وأمة من الناس . أما « القومية العربية » في المصطلح الايديولوجي فهي « سياسة » وشعار وسلاح ايديولوجي في يد قلة من العرب على الكثرة من العرب .

هذا بعض ما صنعه التجريد البعيد بالقومية العربية .

وهناك شيء آخر لم تصنعه مدرسة بعينها وانما شاركت في صنعه ظروف تاريخية ونزعة عند العرب قديمة . أعني هذا الانفصال بين القومية العربية وبين وطنية الارض .

الولاء السياسي عند العرب كان منذ القديم يتصل بجماعة أو بشخص . ولاء العربي في الجاهلية كان للقبيلة ، وولاؤه بعد الاسلام كان

لجماعة المسلمين أو لخليفة المسلمين • ولم ينصرف هذا الولاء قط لدولة أو وطن ذي رقعة من الارض محدودة معلومة •

هذا في القديم ، أما في القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الاولى وانفصال البلدان العربية عن جسم الدولة العثمانية فقد توضحت فكرة الوطن في مصر وظلت مضطربة غامضة في البلدان العربية الواقعة في غربي آسيا • فالوطن عند مصطفى كامل هو وادي النيل (١) • والجنسية المصرية في نظر أحمد لطفي السيد تتحدد بـ « الوطن المصري » أي مصر (٢) • أما في أقطار آسيا الغربية فقد ظل « الوطن » غير محدود • ذلك لان القومية العربية اتخذت أساسا لتعريف الوطن • فالوطن العربي في نظر المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس سنة ١٩١٣ هو جميع أقطار الامة العربية •

ثم ان تجزئة البلدان العربية في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، وتمزيق سورية الطبيعية بصورة خاصة ، لم تساعد على تحديد «الوطن» • لذلك رأينا المجلس التأسيسي السوري المنعقد في دمشق سنة ١٩٢٨ يرفض صورة اقتراح اليمين التالية : « أقسم بالله وبشرفي انني مخلص للوطن ومحافظ على حقوق الامة وأمانيها » • يرفض هذه الصيغة لان « الوطن » مبهم ، كما قال أحد أعضاء المجلس البازرين ، ولان «الوطن» الذي يريدون أن يقسموا يمين الاخلاص له « غير معروف الى الآن » • و « ان الوطن الذي لا تعرف حدوده حتى الآن لا نقسم له يمين الاخلاص » (٣) •

وبين الحربين أخذت فكرة الوطن العربي الكبير تسيطر على سائر

(١) مصطفى كامل ، خطبته في باريس ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، خطبته بالاسكندرية يونيه ١٩٠٠ •

(٢) أحمد لطفي السيد ، الجريدة في ٢ يناير ١٩١٣ •

(٣) فايز الخوري ، المجلس التأسيسي السوري ، ص ١٧٥ •

الاوطان الاقليمية أو القطرية عند المثقفين العرب ، ثم تقوى فكرة الوطن العربي الكبير الذي ينتظم البلاد العربية جمعاء في غربي آسيا وشمالي افريقيا وتنتشر •

وكان من نتيجة هذا الاختلاف بين الواقع العربي المكون من أوطان اقليمية وقطرية متعددة في دول متعددة وبين الوطن القومي العام الكبير الذي يجمع الامة العربية في كل أقطارها ، ان اضطرب ولاء المواطن للوطن وحار بين الاوطان المختلفة التي تتجاذبه •

فالمواطن السوري ، مثلا ، في الجمهورية السورية ، لم يكن ينظر الى سورية على انها وطن نهائي له • انها وطن موقت لا يتجه اليه الولاء كله خالصا كاملا ، وانما هناك وطن آخر ، وطن المستقبل ، وطن الافق القومي الواسع من الخليج الى المحيط ، وهو الاجدر بالولاء •

وبين الوطنين أوطان تتسع وتضيق مع دعوات الوحدات الاقليمية • وكان من نتيجة هذا الاضطراب بين أوطان متعددة أن أفلتت القومية العربية من وطنية الارض • ولذلك نجد ان تعلق الولاء القومي بفكرة القومية العربية غير مرتبط بأرض محددة ولا مقيد بدولة قائمة •

قلنا ان هذا الاضطراب لم يكن من صنع مدرسة بعينها وانما نتج عن نزعة قديمة عند العرب وعن أوضاع تاريخية جعلت الامة والوطن والدولة ثلاثة معان لا يطابق بعضها بعضا • فالدولة القائمة ، كسورية مثلا ، لا تشمل الوطن العربي الكبير ، ولا تشمل حتى الوطن السوري المكون من أقاليم سورية الطبيعية التاريخية ، ولا تضم الامة العربية كلها •

على هذا المسرح المضطرب جاءت « القومية العربية » ، وكأنها تنافس وطنية الارض وتزاحم الدول القائمة على ولاء مواطنيها • وقد تحدث محمد حسنين هيكل عن مواطنين مصريين كتبوا اليه يحتجون على

طي اسم مصر في الجمهورية العربية المتحدة عند قيام دولة الوحدة بين مصر والشام . أما في سورية فلم يصدر مثل هذا الاعتراض لتأثر الناس بالفكرة العربية . وطوي العلم السوري وطمس اسم سورية وأصبحت الاقليم الشمالي في الجمهورية العربية المتحدة . وفي السهولة التي تمت بها تلك العملية ما يؤكد ما ذهبنا اليه من ان تعلق المواطن السوري بالوطن السوري لم يكن كبيرا .

ولعل انفصال « القومية العربية » عن الارض ووطنية الارض هو الذي أغرى بعض الثوريين عقب النكسة بالقول ان الحفاظ على الثورة والدفاع عن النظام الثوري أهم من المحافظة على سلامة الارض والدفاع عن الوطن . ان مثل هذا القول كان يكون كفرا بالوطنية لو لم تنسلخ القومية العربية من الارض كما انسلخت من الانسان بالتجريد البعيد .

وجرت محاولات ، بعد ذلك ، لفصل القومية العربية عن تاريخها الحديث منذ أوائل هذا القرن وعن تطور الفكر القومي العربي في هذه الحقبة . وقد أحدث الاجتهاد الثوري انقطاعا في سيرة القومية العربية ، وتعمد اغفال خمسين سنة من الجهد القومي ، وراح يضع لتاريخ العرب القومي بداية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أو في الثامن من آذار ١٩٦٣ ، كأن ثورة عربية كبرى لم تعلن باسم العرب سنة ١٩١٦ على مسرح العالم ولم يشارك فيها أحرار العرب ، وكأن دولة في الشام لم تقم على أساس تلك القوة العربية التي أطلقتها الثورة العربية ألا وهي قوة الفكرة القومية .

هناك آذار آخر أقدم وأجل ويوم في اذار قومي رائع هو الثامن أيضا من سنة ١٩٢٠ يوم أعلن المؤتمر السوري العام استقلال سورية في ظل تلك الدولة التي قامت في الشام على تراث الثورة العربية الكبرى بزعامة الملك فيصل وذلك الرعيل العظيم من العرب . وجاء في اعلان استقلال سورية ذلك اليوم : « ان الامة العربية ذات المجد القديم والمدنية

الزاهرة لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دم شهدائها الاحرار وتثر على حكومة الاتراك الا طلبا للاستقلال التام والحياة الحرة ، بصفتها ذات وجود مستقل وقومية خاصة لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها » (١) .

ولعل أخطر ما عرض للقومية العربية بين أيدي الثوريين هو تفريغها أو محاولة تفريغها من القيم العربية الاصيلة وفصلها عن التراث العربي كله قديمه وحديثه .

كان لفكرة القومية العربية ، قبل العقدين الاخيرين ، مفهوم روحي أخلاقي لا شك فيه . فالذي يجعل العربي عربيا هو الخلق العربي والاقتراب من النموذج الانساني العالي لعربي الاخبار والفتوحات والمروءات والاساطير . والذي جذب مفكرا لبنانيا كبيرا مثل أمين الريحاني الى الامة العربية هو هذا الخلق النبيل : « أعجب لامة تجلس في أطمارها على الارض ، وتأكل التمر ، وتشرب الماء العكر ، وهي تتحدث في الشمم والاباء ، وفي الصدق والوفاء ، وفي الكرم والشجاعة ، وفي الحرية التي هي عندها الكنز الاكبر . الصفات العربية الخالدة هي التي جذبتني من أميركا ، وحبّبت الي الديار ومن سكن الديار ، بل حبّبت اليّ الدهناء والنفود والمضارب في الاودية والشعاب . هذه الصفات العربية الخالدة هي التي ربطت قلبي بقلب العرب بخيط من الوبر كان أشد القيود ، فصرت للعرب الاخ المحب . وليست العروبة فكرة ثقافية أو عقيدة سياسية ، ولا هي من المبادىء والنزعات التي تتعدد في السياسة وتتنوع في الامة . العروبة روح قومية عالية شاملة تحمل صاحبها على التعاون والتضامن مع اخوانه ليكون لهم جميعا وطن قوي عزيز مستقل

(١) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، مكتبة الكشاف ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٢ .

يضمن لهم السلامة والخير والهناء ويدفع عنهم تعدي الاجانب • هذه هي العروبة في أسمى معانيها وأقصى أهدافها » (١) •

وقد جمع الطلاب العرب في مؤتمرهم بلندن صيف ١٩٤٦ المثل العربية العليا في هذا التعريف الجميل :

« نحن العرب ، نعبد الله ونؤاخي الانسان ونكرم ضيفنا ونرعى جارنا ونصون أعراضنا ونفي بالعهد • نسرع الى النجدة ونخاف العار ونعد القتل أشرف الموت • نحترم العلم والعلماء ونقدم رجال الفضل والكرامة ونطيع أولي الامر منا في الحق • نحب البلاغة والحكمة وسوانح الادب ، ونتخذ الشعراء وأصحاب البيان ندماء سمرنا وزينة المجالس • لنا افتتان بالعلى وشغف بالندى ، وتسابق الى الغايات وسبق في المروءات ••• » •

كان هذا هو المفهوم العربي الاصيل للقومية العربية ، ثم جاءت الموجة الثورية في العقدين الاخيرين لتفصل بين القومية العربية وبين القيم العربية الاصيلة ولتحل مكان الخلق العربي المتصف بالشهامة والوفاء أخلاقية ثورية تجيز كل وسيلة في سبيل الغرض الثوري •

كان اسم العربي مرادفا للوفاء وصدق الاخاء والمروءة ، فتوارت خطوط الصورة الجميلة لتحل محلها خطوط التآمر والغدر التي رسمتها الثورية بانقلاباتها التي لا تنتهي ومحاولات انقلاب في كل مكان •

وكان العربي مشهورا بحسن الادب وكرم الخلق ، أدبه ربه وأدبه الانبياء ، وصقلته كالسيف عصور طويلة من الحضارة فاذا بالسباب والشتائم والتنابذ بالالقاب والاتهامات الخطيرة تصبح لغة التخاطب والمناظرة بين العرب في الصحف وعلى موجات الاثير •

---

(١) أمين الريحاني ، « روح العروبة » ، ألقيت في دمشق سنة ١٩٢٨ ، و « الوطن العربي » سنة ١٩٣٩ •

لقد انحطت مظاهر الحياة العربية في العقدين الاخيرين وشوهت صورة الانسان العربي • ورأى الناس مشهدا عجبا ، أمة العرب ، خير أمة أخرجت للناس تهدم نفسها بنفسها ، تتعادى وتتفانى وتهبط وتسف وتتمزق وتهون •

هكذا جردت « القومية العربية » من حقيقة الامة العربية ، وفصلت عن وطنية الارض ، وتقطعت صلاتها بالتاريخ وبالتراث وبالقيم العربية •

وبعد أن أفرغت القومية العربية منجوهرها ومادتها ومعانيها الاصيلة راح الثوريون يبحثون لها عن « محتوى » جديد •

واذا جاز لنا أن نتكلم بأمثال فمثل القومية العربية كأس كانت ممتلئة بعصير معتق من كروم البلاد ومن أرضها الطيبة ، فأفرغت الكأس وجيء بمركب كيماوي مصنوع في مختبرات بلاد بعيدة ليملأ الكأس الفارغة • وتفجر السائل المستورد وتحطمت الكأس في يد الشاربين •

أما المركب الكيماوي فهو المحتوى الاقتصادي والاجتماعي الذي جاء به الثوريون •

وقد عمد الثوريون الى اشاعة فكرة مستحدثة تقول بأن القومية العربية يجب أن يكون لها محتوى اقتصادي واجتماعي • وأغرب ما في الامر انهم استطاعوا أن يفرضوا هذا الرأي حتى على مفكرين وباحثين من غير الثوريين • ولذلك رأينا انه لا بد من وقفة عند القومية والمحتوى •

ونستطيع أن نقرر باطمئنان ان ليس في أدب العالم عن القومية ما يؤيد قول المدرسة الثورية بأن للقومية مضمونا اقتصاديا واجتماعيا • فالامة ليست شركة تجارية أو شركة صناعية أو برنامج تنمية •

وفي محاضرة رينان الشهيرة « ما هي الامة » نجد ان الامة مبدأ

روحي وأسرة روحية • يقول : الامة هي روح ، مبدأ روحي — شيئان يؤلفان هذا الروح ، هذا المبدأ الروحي • أحدهما في الماضي والآخر في الحاضر • الاول هو الملكية المشتركة لتراث غني من الذكريات ، والثاني هو الاتفاق الحاضر والرغبة في العيش معا ، وتوفر الارادة لتعهد الميراث المشترك • الامة هي عصبية كبرى أو تضامن كبير Une grande solidarité انها تفترض وجود ماض ، وتتلخص في الحاضر بحقيقة جلية : الرضا أو الرغبة الواضحة في مواصلة الحياة المشتركة • فوجود أمة هو استفتاء يومي » (١) •

وكتب الاستاذ باركر : « هناك ثلاثة أسياد يتنافسون على ولائنا • السيد الاول هو الدم أو تصور الامة على انها جماعة عرقية أو جنس • هذه قومية غير صحيحة •

« والسيد الثاني هو التجاور وصلات الجوار تدعمها تقاليد قديمة مشتركة تجمع مختلف الاجناس التي تسكن أرضا معينة وتجعلها أمة الروح • هذه هي القومية الحقيقية •

« والسيد الثالث هو العمل أو الحرفة وهي رابطة اقتصادية مشتركة لجماعة من الناس ، تجمع أفرادها صلات يومية بسيطة من العمل المشترك والمصلحة • هذه ضد القومية » (٢) •

جوهر القومية اذن في الجوار وفي القرابة الروحية الناتجة عن الجوار وفي الاحساس بشركة روحية تعيش بها وتضم ما تضم من تقاليد متعددة غارقة في القدم •

وفي دائرة المعارف البريطانية نجد هذا التعريف : « القومية هي

(١) Ernest Renan, Qu'est-ce Qu'une Nation.
(٢) Ernest Barker, National Character, Preface 15 - 16.

حالة من حالات النفس يشعر فيها الفرد بأن ولاءه الاعلى هو من حق الدولة القومية » •

وقد يساعد على توضيح المعنى القومي الخالص أن نطرح السؤال التالي :

ما هو المحتوى الاقتصادي الاجتماعي للقومية الانكليزية ؟

والجواب بسيط حتى البداهة : ليس للقومية الانكليزية محتوى اقتصادي من حيث هي قومية وليس لها محتوى اجتماعي • والدليل على ذلك ان الحزبين اللذين يتداولان الحكم بينهما ، حزب المحافظين وحزب العمال ، يختلفان في السياسة الاقتصادية وفي النهج الاجتماعي ويظلان على اختلافهما في المناهج والسياسات حزبين وطنيين عاملين ضمن اطار القومية الانكليزية وضمن الولاء الكامل لها •

وهل للقومية الاميركية محتوى اجتماعي اقتصادي ؟

ليس في كتب التربية المدنية الاميركية مذاهب اجتماعية ومناهج اقتصادية وانما فيها مثل عليا أميركية سجلتها الوثائق الهامة في تاريخ البلاد وحفظتها في صدورها الرجال من جيل الى جيل •

من تلك الوثائق التي نقشت بعض سطورها على النصب التذكارية والصروح التاريخية والتي يردد كلماتها التلامذة الصغار كما تردد الصلاة على شفاه العابدين ، البيان الاميركي الذي أعلن به ممثلو المستعمرات الاميركية استقلالهم في ٤ تموز ١٧٧٦ وجاء فيه : « اننا نعد الحقائق التالية من البديهيات : ان الناس جميعا خلقوا متساوين وان خالقهم منحهم حقوقا خاصة لا تنتزع ، وان من تلك الحقوق الحياة والحرية وطلب السعادة ، وانه لصيانة تلك الحقوق أنشئت الحكومات بين الناس ، مستمدة سلطانها المشروع من رضا المحكومين وقبولهم ، وانه حينما

تصبح حكومة من الحكومات خطرا على هذه الغايات فان من حق الشعب أن يبدلها أو يلغيها ليقيم حكومة جديدة ترسخ قواعدها على تلك المبادىء وتنظم سلطاتها على وجه يكفل للشعب السلامة والسعادة » ٠

ومن تلك الوثائق الجامعة للمثل العليا الاميركية خطبة لنكولن في الحرب الاهلية عند تدشين مقبرة Gettysburg ٠ وأي طفل أميركي لا يعرف هذه الكلمات الملهمة : « منذ سبع وثمانين سنة أنشأ آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة طبعت على الحرية واتخذت لنفسها هذا الشعار : « خلق الناس جميعا متساوين » ٠٠٠ وان هذه الامة ، برعاية الله ، ستولد ولادة جديدة في الحرية ، وان حكومة من الشعب ، بالشعب وللشعب لن تزول من الارض » ٠

الامة الاميركية تربطها فكرة الحرية في ظل القانون على ما جاء في الدستور ٠ وقد كتب أحد كبار الباحثين في هذا الموضوع Hans Kohn بأن فكرة الحرية امتزجت بوجود الامة الاميركية امتزاجا الى حد انه بدون فكرة الحرية لا يمكن أن توجد الامة (١) ٠

الامة الاميركية قامت على تلك الحقائق التي أعلنها البيان الاميركي ، فاذا تخلت الامة عن تلك الحقائق فانها تهدم الاسس من كيانها ٠

وليس هذا حديثا قديما تخطاه الزمن وتجاوزته الظروف ، فبالامس قال الشيخ الاميركي المفكر السياسي البارز J. W. Fulbright « ان أمتنا تكونت بفعل اختيار ودستورنا وضع ليحمي ويبقي على الدوام حق مواطنينا في حرية الاختيار ٠ وعلى خلاف الدول العظمى في التاريخ نحن مزيج غني من الثقافات لا يوحدنا الجنس أو الدين وانما وحدنا الاختيار الذي اخترناه بأن نصبح أميركيين » (٢) ٠

(١) (1) Hans Kohn, Nationalism, P. 20.

(٢) (2) Sen J. W. Fulbright, Of Destiny and choice, International Herald Tribune, Jan. 31, 1968.

ولمن يعتقد بأن فرنسا هي النموذج للامة المكتملة نعيد طرح السؤال : ما هو المحتوى الاقتصادي أو المحتوى الاجتماعي للقومية الفرنسية ؟

والجواب هو نفسه : ليس للقومية الفرنسية محتوى اقتصادي أو محتوى اجتماعي ولا تلتزم بنظام سياسي ٠ فقد كانت فرنسا دولة قومية في ظل لويس الرابع عشر ونظام الاقطاع ٠ وكانت دولة قومية في ظل حكومات الثورة المختلفة وسيطرة الطبقة الوسطى ٠ كما كانت دولة قومية في عهد نابليون والارستقراطية الجديدة التي أنشأها ٠ وكانت دولة قومية في كنف الجمهوريات المتعددة والمشاركة الشعبية الواسعة ٠ وهي اليوم دولة قومية برئاسة الجنرال ديغول في الجمهورية الخامسة ٠

ومعنى هذا كله ان النظم السياسية والمناهج الاقتصادية والمذاهب الاجتماعية هي حالات تجري على الامة أو أطوار تمر بها الامة وتبقى الامة واحدة على اختلاف الحالات والاطوار ٠ مثل الامة كمثل العائلة ٠ فقد تسكن العائلة قصرا واحدا تتوزع غرفه ، وقد تسكن في منازل مستقلة متجاورة ، وقد تعمل في حقل مشترك وتجني ثماره وتأكل على مائدة مشتركة ، وقد تقتسم الحقل فيما بينها ويستقل كل فرد بقطعة منه ويزرعها ويجني ثمارها ٠ وجود العائلة والرباط العائلي شيء وكيفية تنظيم حياتها المشتركة واقتسام الارزاق شيء آخر ٠

هذا واذا كانت القومية تلتزم بشيء فانها في أحسن حالاتها وفي أرقى مجتمعاتها قد اقترنت بفكرة الحرية ٠ فالقومية الانكليزية صاحبت مفهوم الحرية الفردية ابتداء من القرن السابع عشر ٠ القومية بالنسبة الى الشاعر ملتون لم تكن تقتصر على التحرر الجماعي من الحكم الاجنبي وانما كانت تعني قبل كل شيء انتزاع الحرية الفردية من السلطة والتأكيد

على قيمة الفرد : « أعطني قبل أية حرية أخرى حرية المعرفة وحرية القول وحرية المناقشة » .

وقد مر معنا ان جون لوك اعتبر الفرد وحريته وكرامته وسعادته العناصر الاساسية في كل حياة قومية .

وقد مشت فكرة القومية يدا بيد مع الفكرة الديمقراطية منذ قيام الثورة الفرنسية ، وذلك تبعا لمنطق داخلي عميق . فالامة التي وجدت نفسها وعرفت أن تعبر عن وجودها بارادة عامة من أجل الحفاظ على مثلها قد أصبحت بذلك جماعة تحكم نفسها بنفسها وفرضت عليها طبيعتها قضية الديمقراطية (١) . ويقظة القوميات تتطلب اشتراك الشعوب اشتراكا فعالا في حكم نفسها . وعندما تبلغ الحياة القومية نضجها واكتمالها فلا بد لها من أن تجري على نهج ديمقراطي .

ثم ان حرية الفرد لا معنى لها اذا لم يكن متمتعا بارادة واذا لم تؤخذ هذه الارادة بعين الاعتبار في الحياة العامة . ولسنا نفرض هنا نظاما سياسيا معينا على القومية وانما نلحظ مبدأ سياسيا تتطلبه حرية الفرد وتستدعيه الحياة القومية الصحيحة . هذا المبدأ هو ان الارادة العامة يجب أن تكون أساس الحياة العامة .

ولا تفرض القومية ، بعد هذا المبدأ ، شكلا معينا من أشكال الحكم الديمقراطي . فالديمقراطيات تتعدد وتختلف بتعدد الامم واختلافها . والواقع ان الديمقراطية تبقى تجريدا الى أن تأتيها الامة بمادتها القومية من أفكار وأخلاق ومثل وتقاليد وتملأها بالحياة .

كذلك يوجد تعاطف بين الفكرة القومية ومبدأ المساواة وما يستتبعه من عدل اجتماعي . فالتفاوت الكبير في حظوظ المواطنين وفي دخلهم

---

(١) Ernest Barker, P. 250.

يفسد وحدة الشعور ويضعف رباط الحب بينهم وتنقسم الامة الى أمتين : أمة الفقر وأمة الغنى . لكن الفكرة القومية لا تفرض نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا معينا تتحقق به على الحصر العدالة الاجتماعية .

ولكل أمة أن تختار الاسلوب الذي يلائمها في تحقيق ما يمكن تحقيقه من عدالة اجتماعية وتساو في الفرص بين المواطنين ورفع مطرد لمستوى العيش . هذه أهداف تجمع عليها الانسانية الراقية في الثلث الاخير من القرن العشرين . وتجربة الانسانية تشير الى ان أرقى الرقي وأرفع مستويات العيش تحقق في بلاد الاقتصاد الحر وليس في بلاد الاشتراكية العلمية . لكن المدرسة الثورية رفعت شعار الاشتراكية وفرضته على القومية العربية بمفهومها الثوري ، أو قل ان المدرسة الثورية زعمت بأن للقومية محتوى اقتصاديا واجتماعيا وان هذا المحتوى هو الاشتراكية العلمية . فلننظر في الصفحات التالية الى هذه الاشتراكية ومبلغها من العلم وحظها من الخير .

المحتوى الاشتراكي

« لان الفكرة الماركسية عـن الصراع الطبقي أمست عتيقة بالية في الاقتصاد الحديث ، فانه من الممكن ، وعليه فمن الضروري ، أن توضع اتفاقات ذات فائـدة متبـادلة » .

(ولتر ليبمان)

لا شك ان الفكرة الاشتراكية من الفكر الرئيسية التي تصارعت في العقدين الاخيرين على العقل العربي وعلى النفس العربية أيضا ٠

وقد كانت الفكرة الاشتراكية مبهمة غامضة أول عهدها بالعرب وما تزال عند الكثيرين من العرب مبهمة غامضة ٠ وان ضررا كبيرا قد نتج عن عدم وضوحها في أذهان طارحيها أولا وعند الشعب الذي طرحت عليه بعد ذلك ٠

والسبب الاول في غموضها وابهامها انها غريبة عن العرب مستوردة اليهم ، وانها نشأت في جو آخر وبلاد مختلفة في جوها الفكري وحياتها الاجتماعية والاقتصادية وفي درجة تطورها ، فلما دخلت بلاد العرب لم تعالج واقع مجتمعهم ولا اهتمت بمشاكله الحقيقية وانما راحت تتصور المشاكل وتتخيل واقعا تريده على شكل معين لتعالجه بحلولها الجاهزة المعدة للتطبيق العالمي ٠

وسبب آخر من أسباب غموض الفكرة الاشتراكية انها عند أصحابها في العالم مدارس مختلفة لها نظريات تختلف ومناهج تختلف ، والفكر الاشتراكي العالمي يتطور ويتغير على الدوام ٠ ثم ان هذه النظريات الاشتراكية والمناهج الاشتراكية لا تتوقف ولا تتجمد في قوالب نهائية وان جمد بعضها الى حين ، خلافا لطبيعة الاشياء ، فانها لا تلبث أن تتأثر بحيوية الحياة وابتكار الفكر ٠ وأصحاب المدرسة الثورية في بلاد العرب

عندما ابتدأوا يطرحون شعار الاشتراكية لم تكن عندهم شيئا واضحا محددا ، انما اتصل بهم انها الزي الفكري والاجتماعي الاخير الذي ظهر في أوروبا وانها موجة المستقبل وانها تهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل عام . لقد أخذوها أخذا سطحيا ونقلوا جوانب منها أو بعض مظاهرها نقلا دون دراسة جدية وتعمق وبحث واستقصاء .

ولعل غموضها زاد في سحرها عندهم وأتاح لهم أن ينسبوا اليها ما يشاؤون وأن يجمعوا بينها وبين معتقدات الناس وتقاليدهم ، وقد جنوا من غموضها بعض الفوائد ، حتى ان قادة الحزب العربي الاشتراكي وأول المؤيدين له في سورية كانوا من الطبقة الوسطى ، العالية منها والصغيرة.

الا ان هذا الغموض كان طابع المرحلة الاولى من مراحل الاخذ بالاشتراكية .

في تلك المرحلة كانت الاشتراكية في نظر أحد أقطاب حزب البعث العربي الاشتراكي : « شيء من العدالة وشيء من الذوق في تطبيق القوانين » (١) .

وفي تلك المرحلة كان ميشيل عفلق يكتب : « الاشتراكية أكثر من نظام اقتصادي مرن متكيف مع حاجات كل أمة . وليس بعسير على العرب اذا ما تخلصوا من كابوس الشيوعية ، أن يهتدوا الى اشتراكية عربية مستمدة من روحهم وحاجات مجتمعهم ونهضتهم الحديثة ، تقتصر على ايجاد تنظيم اقتصادي معقول عادي يحول دون الاحقاد والنزاعات الداخلية ودون استثمار طبقة لاخرى وما ينتج عنه من فقر وجهل وشلل لنشاط عدد كبير من أفراد الشعب العربي .. » (٢) .

(١) أكرم الحوراني ، محضر جلسات مجلس النواب السوري عام ١٩٤٩ .
(٢) في سبيل البعث ، ص ١٩٧ .

كان معنى الاشتراكية ، اذن ، يقتصر على التنظيم الاقتصادي الذي يهدف الى العدالة الاقتصادية بين المواطنين بشكل غامض . وقد استمر هذا الغموض حتى سنة ١٩٥٦ ، اذ يعرف الاستاذ عفلق الاشتراكية على الوجه التالي : « الاشتراكية بصورة بسيطة كما يفهم من لفظها هي أن يشترك جميع المواطنين في موارد بلادهم بقصد أن يحسنوا حياتهم وبالتالي حياة أمتهم » (١) .

وفي تلك المرحلة الاولى أو في ذلك الطور من أطوار الاشتراكية العربية كان الحرص شديدا على التفريق بين الاشتراكية العربية وبين الشيوعية .

وانا لنجد الاشتراكية المصرية الرسمية تسجل اختلافها مع الشيوعية حتى أوائل سنة ١٩٦٥ في حديث الرئيس جمال عبد الناصر : « وتختلف الاشتراكية المصرية عن الشيوعية في كثير من المسائل ، فنحن نؤمن بالدين أولا ونرفض دكتاتورية أية طبقة من الطبقات وتتعلق بالقومية . اننا لا نصفي أية طبقة بل نصفي امتياز الطبقات .. الماركسية فيها فلسفة لها أهميتها لكن الماركسية لا تعترف بالدين . أنا أختلف اختلاف جذري في هذا . بيقولوا لا بد من دكتاتورية البروليتاريا . أقول أنا أختلف اختلاف جذري في هذا . بيتكلموا على العنف .. أقول أنا أختلف اختلاف جذري في هذا . اذن نحن اشتراكيتنا شيء والشيوعية شيء آخر » (٢) .

وفي المرحلة الثانية أخذت الاشتراكية العربية ببعض مبادىء الماركسية وبعض نظرياتها وبالكثير من اصطلاحاتها وشعاراتها ، وكان أهم ما أخذته الاشتراكية العربية عن الماركسية فكرة الطبقات وصراع الطبقات .

(١) في سبيل البعث ، ص ٢١٢ .
(٢) الاهرام ، ١٢ مارس ١٩٦٥ .

وفكرة الطبقة هي في الصميم من النظرية الماركسية • وعند ماركس ان تاريخ أي مجتمع هو تاريخ لصراع الطبقات فيه • ومفتاح كل تفكير ماركسي هو القول الجازم بأن في كل مجتمع طبقة مسيطرة وان الدولة ليست أكثر من أداة تمارس الطبقة المسيطرة الحكم بواسطتها •

وتجر الفكرة الطبقية معها فكرة الثورة ، فان صراع الطبقات يؤدي الى ثورة العمال ثم الى حكم العمال ثم في الزمن الطويل الى مجتمع بدون طبقات •

وهكذا تصبح الطبقة محور التفكير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي كله وتضعف الى جانبها فكرة الامة وتتوارى شيئا فشيئا •

وقد قال الاشتراكيون العرب بأن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي يسلك طريق الثورة الى التقدم •

وأخذت الاشتراكية العربية من الماركسية أيضا اعتقادها بأن هناك حتمية تاريخية تفرض الحل الاشتراكي •

ورافق هذا الاخذ من النظريات الماركسية ومهد له كلام كثير عن الاشتراكية وقوتها وعمقها ، حتى ان ميشيل عفلق تحدث عن فكرة الاشتراكية على انها من الحقائق الازلية (١) •

وفي المرحلة الثالثة تبنت المدارس الاشتراكية في بلاد العرب الاشتراكية العلمية تبنيا صريحا ، فجاء في الباب السادس من الميثاق : « ان الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم » (٢) •

---

(١) في سبيل البعث ، ص ٢٥٧ .

(٢) الميثاق ، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦١ .

وقررت حركة القوميين العرب « اعتماد الاشتراكية العلمية دون سواها •• واعتماد الثورية والايمان بالصراع الطبقي كحقيقة علمية لا بد منها للتطبيق الاشتراكي » (١) •

واذن فان الاشتراكية العربية انتهت الى الاشتراكية العلمية التي هي اشتراكية ماركس ولينين •

ومهما يكن موقف بعض القادة الثوريين من الاشتراكية العلمية فان الجو الاشتراكي الذي ساعدوا على نشره في العالم العربي قد شجع على تسرب المبادىء الماركسية الى صفوفهم ، ذلك ان الغموض الاشتراكي عندهم والاضطراب الفكري كان يقابله عند الماركسيين وضوح وتحديد وهجوم عقائدي مركز مستمر كان لا بد من أن يسود آخر الامر في صفوف الاشتراكيين ، كما ساعد على نشر الجو الاشتراكي في بلاد العرب تطور العلاقات العربية السوفياتية وصفقات الاسلحة وتعدد الصلات والرحلات وازدياد المساعدات الاقتصادية والفنية •

ثم ان هناك ضعفا عاما عند الاشتراكيين تجاه الاشتراكية العلمية ، فهم يتأثرون بموقف الماركسيين من الاشتراكيات المختلفة غير الماركسية ، ويتلخص هذا الموقف في القول بأن كل اشتراكية ما عدا الاشتراكية العلمية هي اشتراكية مزيفة • وقد لاحظ الاستاذ كلوفيس مقصود في كتابه عن « أزمة اليسار العربي » بأن اليساريين يعانون من « مركب النقص تجاه الشيوعية والرضوخ للمنطق القائل بأنها أعلى درجات الاشتراكية » (٢) •

---

(١) من تقرير حركة القوميين العرب في بيروت المنشور في صحف لبنان في مطالع شهر أيار ١٩٦٤ ، « الحياة » ٢ آب ١٩٦٤ .

(٢) كلوفيس مقصود ، أزمة اليسار العربي ، ص ١٢ .

واذن فقد انتهت الاشتراكية العربية الى « أعلى درجات الاشتراكية » حين قبلت الماركسية مذهبا لها .

ومع تكامل عناصر الاشتراكية العلمية عند الثوريين العرب كانت تتناقص القومية العربية في نفوسهم وتضعف وتسلك طريق الزوال . وهذا يلتقي مع ما يتوقع الاشتراكيون من زوال القومية تدريجيا مع تحقيق الاشتراكية .

ومحور التفكير الماركسي كله هو فكرة الطبقة وصراع الطبقات . والولاء في الاشتراكية الماركسية هو للطبقة . أما في القومية فالولاء للامة . وهذا اختلاف أساسي .

الاشتراكية الماركسية تحاول أن تجمع الطبقة العاملة في العالم كله جمعا أفقيا . أما القومية فتحاول أن تجمع أبناء الامة الواحدة جمعا عاموديا يضم كل الطبقات فوق أرض محددة تحمل ذكريات الاجيال الغابرة . والقومية العربية لا معنى لها ان لم تجمع أبناء الامة العربية . أما الاشتراكية الماركسية فرسالتها أن تفرق أبناء الامة الواحدة الى طبقات متصارعة .

وقد أوضح الاختلاف الاساسي بين الفكرة القومية والفكرة الطبقية للاشتراكيين العرب الرئيس السابق خروتشوف في اسوان حين خاطبهم قائلا :

« انني أستمع الى خطاباتكم أيها الزملاء وأنتم تنادون أيها العرب اتحدوا . ونحن الروس ونحن غير عرب هل نذهب الى بيوتنا . ان لينين لم يدع الى الوحدة بهذه الطريقة . انه أعطانا شعار اتحاد الشعوب لا على أساس القومية بل على أساس العمل . هل بين العرب رأسماليون ؟ هل يوجد بين العرب اقطاعيون ؟ وأنا أسألكم هل يعتبر هؤلاء الاقطاعيون

والرأسماليون اخوانا للعمال ؟ انني أقول ان العامل العربي والفلاح العربي أقرب الى قلبي بكثير من الاقطاعي العربي والرأسمالي العربي ومن الاقطاعي الروسي والرأسمالي الروسي .

« اننا جئنا لنساعد الجمهورية العربية المتحدة لا بصورة مساعدة العرب أجمعين بل للعرب الفلاحين والعمال . هذه هي فلسفة لينين التي انتصرت في بلادنا وسوف تنتصر في بلاد أخرى حينما تنهض شعوب البلاد المستعمرة سابقا ويجري اتحاد الشعوب على أساس واسع » (١) .

هذا وان ادخال الطبقة الى تفكير العرب ، وادخال الصراع الطبقي الى حياة العرب ، قد دمر وحدة الامة العربية الروحية والفكرية قبل أن تسعى الى وحدة سياسية أو وهي ساعية الى الوحدة . وكيف يمكن أن تتحقق وحدة سياسية في جو الحرب الطبقية التي أثارتها المدرسة الثورية في بلاد العرب . فالشعب المنقسم الى طبقات متصارعة تتفانى ليس أمة واحدة وبالتالي ليس أهلا لان يكون دولة قومية وليس قادرا على تحقيقها .

وقد بلغت المدرسة الثورية في تفكيرها الطبقي مبلغا جعلها تقسم العرب الى قسمين وتدعو الى حرب عنيفة بينهم « لا تداني قسوتها قسوة الحروب الخارجية مع الاعداء الالداء » (٢) . وأجازت لنفسها أن تتحدث عن العرب غير الثوريين على انهم أعداء .. « للحركة الانقلابية نوعان من الاعداء : العدو السافر وهو كل الفئات والاحزاب الرجعية ، والعدو المقنع وهو الاحزاب والفئات القومية التقدمية الزائفة » (٣) .

(١) خروشوف ، خطاب اسوان في ١٦ أيار ١٩٦٤ ، « النهار » ١٧ أيار ١٩٦٤ .

(٢) في سبيل البعث ، ص ١٦٠ .

(٣) في سبيل البعث ، ص ١٦٦ .

وقد وضعوا « الرجعية العربية » مع الصهيونية ومع الاستعمار في مستوى واحد من العداء •

بهذا المنطق الماركسي الثوري تحطمت وحـدة الشعور القومي عند العرب •

ثم هناك الدولة • انالامة العربية كانت تتطلع منذ أوائل هذا القرن الى انشاء دولة عربية ، دولة قومية • فما هي الدولة في نظر الاشتراكية العلمية ؟ الدولة في نظر الاشتراكية العلمية هي أداة لسيطرة الطبقة ، هي دولة طبقية • فالوحدة العربية التي يتطلع اليها الثوريون هي دولة لطبقة الثوريين وليست للامة العربية • هذا ان كان هناك شيء من الجد في دعوتهم الى الوحدة •

وأهم من ذلك كله ان الاشتراكية الماركسية تناقض الاسس الروحية والتاريخية للامة العربية • فالامة العربية تجمعت حول ذكريات تاريخية يتصل أهمها بالله وبرسالات السماء • وقد حفظ لها القرآن الكريم لغتها، وكان عاملا أساسيا في صيانة شخصيتها الفريدة عبر القرون •

أما تحليل كارل ماركس للمجتمع فقد جاء في تأويل اقتصادي للتاريخ : انتاج السلع والخدمات وتبادل السلع والخدمات هي أساس كل التطورات الاجتماعية وكل المؤسسات • فالعامل الاقتصادي في نظر ماركس هو أهم عامل وهو الاساس الذي يقوم عليه بناء الثقافة والدين والقانون والحكم •

والنظرية الماركسية تحوّل الانسان الى حيوان اقتصادي مرتبط بالارض ليس فيه قبس الهي رفيع • وليس للانسان قيمة الا بقدر ما يمثل طبقة اقتصادية هي الطبقة الثورية • أما خارج تلك الطبقة فليس له قيمة •

ومن مبادىء الاشتراكية الماركسية ان لا اله ، واذن فليس للانسان نفس وعليه فليس له قيمة روحية •

أما عند العرب فالانسان ذو قيمة رفيعة لان له نفسا ولانه خلق على صورة الله ومثاله •

واذن فالخلاف بين القومية العربية وبين الاشتراكية الماركسية خلاف أساسي وخطير • ولا يستطيع المرء ، بدون الوقوع في التناقض ، أن يكوناشتراكيا ماركسيا وقوميا عربيا في وقت واحد • وعليه أن يختار بين الله والمادة ، بين الامة والطبقة ، وبين الانسان ـ الكائن الروحي والانسان ـ الحيوان الاقتصادي •

هذا في أساس الموضوع وعلى الصعيد النظري الصارم ، أما في مجال النظر والتطبيق الاشتراكي فانه لا بد من الملاحظة بأن اشتراكية الثوريين العرب هي اشتراكية متخلفة عن التطور الاشتراكي في العالم بما يقرب من ربع قرن • ان الاشتراكية التي يحسبون انها آخر ما توصل اليه العالم هي الآن في نظر العالم الراقي شيء متخلف قد تجاوزه الزمن• وقد تطورت النظريات والانظمة الاشتراكية ذاتها في بلاد الاشتراكية العلمية • لكن الثوريين العرب ظلوا في اثر نظريات قديمة متحجرة قد تخطتها التجارب وزعزع أسسها العلم الحديث وعدل أصحابها فيها وصرفوا النظر عن بعضها في أكثر أقطار الاشتراكية • الفكر الاشتراكي في العالم يتطور مع تطور الفكر العالمي ويصحح من أخطائه ويفيد من خبرته وتجاربه الطويلة ، والانقلابيون العرب متجمدون عند الفكر الاشتراكي الذي كان سائدا منذ عقدين أو ثلاثة • انهم متخلفون عن الفكر التقدمي الذي يدعون ، وهم لا يدرون مقدار تخلفهم ورجعيتهم وعبوديتهم لنظريات عتيقة وشعارات مستهلكة بالية •

وقد لاحظ هذا الامر الاستاذ جاك بيرك (Jacques Berque)

اذ كتب في مجلة « دراسات عربية » يقول : « ان الماركسية الغربية قد أخذت تتجنب كل ضيق في التأويل المنهجي • وقد لاحظت مرارا في أحاديثي مع بعض أصدقائي الشرقيين ان في أقوالهم نوعا من التزمت الذي تجاوزه الحزب الشيوعي الفرنسي منذ سنوات عديدة » (١) •

ان الاشتراكية العلمية هي الآن عند الكثيرين من اشتراكيي العالم موضع اعادة نظر وتأويل جديد • وقد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه بعد موت ستالين ، وعدل خروتشوف في نظريات ماركس ولينين وقال بالتعايش السلمي بين نظامين متناقضين • واليك أيها القارىء الكريم بعض الامور التي طرأ عليها التطور والتغيير في الاشتراكية الماركسية عند أربابها في العالم :

أولا ـ في موضوع صراع الطبقات • من الملاحظ ان العلاقة بين العمل ورأس المال قد تطورت في المجتمعات المتقدمة الحديثة وأصبحت فكرة صراع الطبقات شيئا قديما متخلفا • فقد تبرجست الطبقة العاملة في البلدان الراقية مثل السويد وانكلترا وفرنسا الى حد ان زعيم الحزب الشيوعي في السويد دعا منذ سنة ١٩٦٣ الى اعادة النظر في حتمية الصراع الطبقي قائلا : ان الناس جميعا في المجتمع السويدي قد أصبحوا طبقة وسطى واحدة ، فلا معنى للصراع الطبقي بعد ذلك •

ودلت الانتخابات الفرنسية التي جرت في حزيران ١٩٦٨ على ان الطبقة الوسطى الجديدة من عمال وفلاحين قد آثرت القانون والنظام والتمتع بخيرات مجتمع الاستهلاك ، ورفضت المضي في ثورة الطلاب •

هذا وان الاحزاب الشيوعية في أوروبا لم تعد الحركات اليسارية المتطرفة التي كانت في الماضي • فقد تبرجست الى حد ما وأصبحت مشاركة

(١) عن مجلة « دراسات عربية » ، لسان الحال ، ١٨ شباط ١٩٦٨ •

في المؤسسة القائمة التي تحيط بها • كما ان روسيا نفسها أخذت تتبرجس وتؤثر تحسين الاقتصاد السوفياتي ورفع مستوى الحياة في روسيا على العمل الثوري في العالم •

وهناك خلاف بين اليسار الجديد واليسار القديم • فاليسار الجديد يتبع شي غيفارا (Che Guevara) وماركوزي (Herbert Marcuse) بدل لينين وبريجنيف ، ويدافع عن المحرومين في المجتمع • وعلى رأس هذا اليسار الجديد الصين وكوبا وفوضويون من طلاب العالم • أما اليسار القديم فتقوده روسيا والاحزاب الشيوعية التقليدية المتبرجسة ، كما قدمنا ، الداخلة في نظام الاشياء •

وقد صرحت سفيتلانا ستالين (Svetlana Stalin) بأن فكرة الثورة الطبقية ، وهي الفكرة الاساسية في الماركسية ، قد فقدت كل معنى في القرن العشرين ، قرن القنبلة الذرية وارتياد الفضاء • وأعربت عن اعتقادها بأن الماركسية اللينينية في روسيا ، بعد خمسين سنة ، قد عجزت عن أن تصبح الايديولوجية السائدة عند الشعب (١) •

وقد أشار الى معنى آخر رئيس السنغال سنغور (Senghor) فقال بأن عدم المساواة لم تعد قائمة بين الطبقات الاجتماعية داخل الامة الواحدة ، وانما تقوم بين الامم في العالم وبين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة (٢) •

ثانيا ـ في موضوع الايديولوجية • ان هناك ظاهرة بارزة في أوروبا الشرقية اليوم هي انحطاط وبلى الايديولوجية الشيوعية وانصراف الشيوعيين أنفسهم عن الفكر التجريدي ، كما في هنغاريا حيث يبدي

(١) New York Times, May 2, 1967.

(٢) The Observer, Aug. 27, 1967.

الجيل الجديد من الشيوعيين اهتمامهم بالبيـــوت الجميلة والسيارات الجديدة والعطل يقضونها بهناء ، حتى ان آباءهم قد أقلعوا عن زادهـم العقائدي • وقد روى مراسل النيوزويك انه في كل مكان زاره مـــن أوروبا الشرقية فان أكثر أعضاء الحزب الشيوعي الذين قابلهم سرا سلموا بأن الماركسية التقليدية هي قوة مستنفذة وأعلنوا له موت الايديولوجيـا وتكوُّن أشكال جديدة ومؤسسات جديدة (١) •

ولماذا نذهب بعيدا ، فهذا خروتشوف نفسه صرح في هنغـاريا في كانون الاول سنة ١٩٦٤ : « اذا لم نعـد الشعب بشيء أفضل من الثورة فانهم سيحكون رؤوسهم ويقولون : أليس الافضل لنا أن نحصل عـلى « الكولاش » وهو طعام • اذا لم تطعم الشعب غير الشعارات الثوريـة فانهم قد يصغون اليوم وقد يصغون غدا وقد يصغون بعد غد ، ولكنهم في اليوم الرابع سيقولون : اذهب الى الجحيم » (٢) •

وقال الرئيس السابق خروتشوف في خطاب ألقاه في جلسة لمجلس السوفيات الاعلى : « ان غايته الاولى هي تأمين الرفاهية للشعب ، وان تزويد الشعب بحاجاته يجب أن تأتي قبل العقائديات والنظريات » (٣) •

ومن الملاحظ ان الرئيس كوسيغين (Kosygin) هو من جيل الحكام التكنوقراطيين ، وانه يتحدث عن الثورة التكنولوجية أكثر مما يتحدث عن الثورة الايديولوجية (٤) •

ثم ان السياسة الخارجية السوفياتية لم تعد تدعي انها خاضعـة لاعتبارات ايديولوجية ، فقد كتبت الصحيفة الحكومية « ازفستيا » مقالا

(١) نيوزويك ، ١٠ آب ١٩٦٤ .
(٢) الاوبزرفر ، ٢١ كانون الاول ١٩٦٤ .
(٣) الحياة ، ١٤ تموز ١٩٦٤ .
(٤) C. L. Sulzberger, New York Times, Jan. 13, 1967.

في الاول من تموز ١٩٦٨ تقول فيه صراحة : « ان السياسة الخارجيـة السوفياتية تخضع لمصالح دولة الشعب السوفياتي ، ولضمان حرمة حدود أرضنا وشواطئنا وفضائنا الجوي ، ولحماية كرامة العلم السوفيـاتي وحقوق المواطنين السوفيات وسلامتهم » (١) •

هذا شأن الايديولوجيـة في الاتحاد السوفياتي وفـي أوروبـا الشرقية •

أما في العالم الغربي فقد تحققت العدالة الاجتماعية بدون ماركسية وبدون مذاهب عقائدية ، كما في السويد وانكلترا •

وفي العالم الثالث أو العالم النامي حاولت الهند أن تبني مجتمعـا ديمقراطيا اشتراكيا بدون صراع عقائدي • تقول في ذلك انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند : « ان اشتراكيتنا هي اشتراكية ترجع الى واقـع الوضع الهندي • انها لا ترتبط بأية عقائدية • ان ما نريد جميعا هو حياة فضـلى ، مع طعام أكثر ، وأعـمال وفرص • يجب ألا نصبح أسرى كلمات (٢) •

ثالثا — لم تعدهناك طريق واحدة لتحقيق الاشتراكية • فمنذ سنة ١٩٤٨ شجع الرئيس اليوغوسلافي تيتو على اتخاذ الموقف القائل بأن لكل دولة أن تسلك طريقها الخاصة بها الى الاشتراكية • وبعد اتضاح موقف تيتو ظهرت نزعات استقلالية في دول أوروبا الشرقية وظهر الانقسام في العالم الاشتـراكي بحيث ان جورج كينان (George Kennan) الخبير الاميركي بشؤون الاتحـاد السوفياتي اقترح أن تهمل كلمـة « الشيوعي » لانه لا يصح الحديث بعد الآن عـن الشيوعية العالمية ،

(١) الازفستيا ، تموز ١٩٦٨ ، عن الانترناشيونال هيرالد تريبيون ، في ٤ تموز ١٩٦٨ .
(٢) مجلة تايم ، ٦ أيار ١٩٦٦ .

والاقرب الى الصواب أن يكون الكلام على « روسيا » و « الصيـن » وحكومات البلاد الشيوعية المختلفة وشعوبها (١) •

وها هي اليوم تشيكوسلوفاكيا تحاول أن تبني اشتراكية ديمقراطية على طريقتها الخاصة بحيث تضمن الحريات الاساسية للمواطنين •

رابعا ــ جرت محاولات جدية في الاتحاد السوفياتي لتكييف نظرية اقتصادية من القرن التاسع عشر مع متطلبات عصر الصاروخ والـذرة والاستهلاك العام • وكتبت «البرافدا» مقالا افتتاحيا تقول فيه : « المطلوب ليس التنظيم الجديد وتنظيم التنظيم ، وانما الموضوع هو الحافز الاقتصادي من أجل زيادة الانتاج وتحسين مستواه » (٢) •

ولوحظ بأن ملايين العمال الذين يعملون في الزراعة السوفياتية ليس لديهم اهتمام أو لذة بما يعملون ، ويظهر هذا في عملهم • وقد رأى وزير الزراعة السوفياتي فولوشنكو (Volochenko) أن يكون للعمال فائدة مادية من الاستغلال الحسن لما يوظف في الزراعة (٣) •

وقد نشر الاستاذ ليبرمان (Liberman) ، الاقتصادي السوفياتي ، أطروحة في صيف ١٩٦٢ يدعو فيها الى تعهد « دافع الكسب » كوسيلة لزيادة الانتاج وتحسين نوعه • وبعد ثلاثة أشهر من النقاش أعطى خروتشوف الاشارة لتطبيق خطة ليبرمان في بعض المصانع حيث أتيحت لادارة المصنع الحرية في تقرير ما يصنع وما ينتج وترك للمستهلكين اختيار النوع والنموذج والكمية • وأعطي للادارة أن تحتفظ بنسبة من الارباح تزيد بها رأسمال المصنع وتوزع منها على العمال تشجيعا • وقد ذهبت القيادة السوفياتية الحاضرة أبعد من خروتشوف في استرضاء

(١) The Observer, July 12, 1964.

(٢) جريدة التايمز ، ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٤ •

(٣) نيويورك تايمز ، ١٩ شباط ١٩٦٤ •

الفلاحين بتأكيدها على ضرورة اعطاء الفلاحين قطع أرض خاصة يستغلونها كيف يشاءون ويجنون أرباحها (١) •

وهكذا أتيح لحافز الربح أن يدخل نظام الاشياء في الاتحاد السوفياتي •

حصل كل هذا التطور في الماركسية ، نظرا وعملا وتطبيقا ، والاشتراكيون العرب ماضون في الاخذ أكثر فأكثر بأسباب الماركسية قبل أن يطرأ عليها هذا التطور الكبير في اتجاه الاعتدال والتلاقي مع الواقع ومع الصالح العام •

الاشتراكية العالمية في موطنها الاول تتحرر وتتقدم وتتطور وتصبح عصرية حديثة واقعية انسانية ، والاشتراكية العربية تتخلف وتتحجر وتبتعد عن ضرورات الحياة ومتطلبات الواقع وتنظر الى وراء •

وبينما تضعف الايديولوجية في العالم تزداد شهوة الثوريين العرب للمذاهب الاشتراكية ولهذا الحديث الايديولوجي الذي يلهي العرب عن مشاكلهم الحقيقية وعن الحلول الحقيقية للمشاكل ويبعدهم أيضا عن حقيقتهم وعن قيمهم واصالتهم •

ولعل خير ما ننهي به هذا الفصل كلمات قالها تيبور دربي (Tibor Derby) ، وهو شيوعي قديم وواحد من أشهر كتاب هنغاريا ، فهي تنقل المناخ الجديد في بلاد الاشتراكية المتطورة • كتب دربي في صيف ١٩٦٥ :

« لا أرتاح ولا أرضى الا باشتراكية قائمة على الانصاف والتسامح والاعتدال ويمكن أن تقال الحقيقة في ظلها وتعلن • نريد أن نبني مجتمعا انسانيا أكثر عدالة ، ولكن لا عدالة بدون صدق واخلاص للحقيقة » (٢) •

(١) الاوبزرفر ، ١٣ كانون الاول ١٩٦٤ •

(٢) نيويورك تايمز ، ٢٣ تموز ١٩٦٥ •

بَعضُ مَا حملتْ الايديُولوجيَّة الثوريّة

« النتيجـــة الكبرى المتحصلة من فيسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل النشوء على الثورة ، وأعظم وسائط الارتقاء بالنشوء انما هو الاتفاق الذي لا يقرر شيئا الا تدريجا وبعد أن يتم التراضي عليه » .

(شبلي الشميل)

رأينا فيما تقدم ان قوميات عديدة وعريقة عاشت أجيالا طويلة بدون ايديولوجية وأكثرها يعيش الى اليوم بدون مذهب ايديولوجي . ان لها فلسفة خاصة ومثلا عليا وطريقة في الحياة متميزة ، لكن هذا كله شيء والايديولوجية شيء آخر .

والقومية العربية عاشت أكثر من نصف قرن بدون ايديولوجية وكانت ما قبل الطور الايديولوجي صافية نقية صادقة التعبير عن شخصية قومية تاريخية حقيقية .

ثم جاءت المدرسة الثورة فأضافت الايديولوجية الاشتراكية الثورية اضافة الى القومية ، وأدخلت بذلك الى الحياة العربية عناصر غريبة عن القومية العربية ، بعضها يعمل في اتجاه معاكس للقومية وبعضها الآخر ينافي القومية ويناقضها وينسف الاسس التي تقوم عليها .

وكانت تلك الاضافة عملا مصطنعا ، حتى ان أستاذا باحثا كتب كتابا كاملا عن الايديولوجية الثورية في الشرق الاوسط محاولا أن يعيرها شيئا من الاعتبار والاحترام ، ومع ذلك لم يسعه الا أن يعترف عرضا بأن الايديولوجيات القومية في الشرق الاوسط « لها رنة كاذبة لانها الى حد كبير مقلدة .. » (١) .

والحق ان ليس للايديولوجية الثورية في بلاد العرب رنة صدق

---

(١) Binder, The Ideological Revolution in the Middle East, P. 81.

وليس لها صدى في النفس لانها شيء مصطنع ومضاف ومستورد ومقلد وغريب •

وقد حاولت المدرسة الثورية أن تعطي الايديولوجية ـ هذا الشيء الغامض الغريب ـ مكانة في نظر العرب ، وراحت تدعي بأن لا بد للقومية من ايديولوجية وان الايديولوجية الثورية هي الصيغة الاخيرة والحل النهائي لكل مشاكل العرب • وادعت كذلك بأن الاحزاب الايديولوجية هي وحدها الاحزاب الحقيقية •

والواقع ان الاخذ بايديولوجية ثورية على هذا النحو هو دليل على تخلف البلاد الآخذة بها • والاشتراكية العلمية لم تزدهر الا عند الامم المتخلفة حيث تقوم ظروف غير مشجعة للتقدم الاجتماعي • أما في البلدان المتقدمة حيث يجري التقدم الاجتماعي بصورة طبيعية ويمكن أن يستمر على تلك الصورة فلا حاجة لاسطورة الاشتراكية العلمية لتشجيع التقدم ودفع المجتمع الى أمام •

والاحزاب الديمقراطية في البلدان الراقية ليست ايديولوجية ولا تدعي ايديولوجية ثورية أو غير ثورية • والسياسة في البلدان الديمقراطية لا تجري على أسس ايديولوجية • والنظرة السائدة في الغرب هي ان الاحزاب الايديولوجية هي أحزاب غير ديمقراطية • والاحزاب الديمقراطية لا تكون ايديولوجية بمعنى انها لا تدعي احتكار الحقيقة والتفرد بها ولا تتقدم لتفرض رؤياها على البلاد كلها • الاحزاب الديمقراطية تعترف بأن هناك وجهات نظر أخرى غير وجهة نظرها ، وهكذا تصبح حكومة الشورى ، حكومة النقاش ، شيئا ممكنا وضروريا •

وفي نظر العالم الراقي الاحزاب الايديولوجية هي الاحزاب الفاشستية والنازية والشيوعية • هي أحزاب ثورية أو رجعية ، انقلابية

على الحالين ، ومقترنة دائما بالحكم الكلي الشامل وبدكتاتورية الفرد أو دكتاتورية الحزب الواحد •

هذه هي حقيقة الدعوة الايديولوجية التي يراد لها أن تسيطر على عقول العرب وعلى مصائرهم •

وشيء آخر في هذه الايديولوجية هو الثورة • وقد عملت المدرسة الثورية في بلاد العرب على تمجيد الثورة من حيث هي ثورة • وأصبح كل شيء حسن ثوريا • فالتفكير الجيد « تفكير ثوري » ، والتخطيط الصحيح « تخطيط ثوري » • وهناك « التنسيق الثوري » و « العمل الثوري » و « الاندفاع الثوري » و « الحرب الثورية » ، حتى لقد سمعنا بوجود ما سمي « الصبر الثوري » • والثورة ، ككل فكرة أو مفهوم جاءت به المدرسة الثورية ، تستجدي التعريف والتحديد •

اذا كان المقصود بالثورة ازالة فساد كبير في جسم الدولة لا تمكن ازالته الا بلجوء الشعب الى العمل العنيف المباشر فالثورة ضرورة وواجب على المواطنين الاحرار ، وهي كذلك حق من حقوقهم • ولهذا السبب أشار توماس جفرسون أن يحتفظ كل مواطن بسلاحه لكي يثور ويصحح الخطأ بالقوة اذا ما استشرى الفساد في البلاد ولم تعد هناك وسيلة أخرى للاصلاح • وقال فيما قال : « ان شجرة الحرية ينبغي أن تروى بين الحين والحين بدم الوطنيين ودم الطغاة • انه غذاؤها الطبيعي » •

لكن للثورة ثمنا باهظا ، وهي أمر خطير لا ينبغي الاقدام عليه الا اذا كان الفساد جسيما حقا ولم تكن هناك وسيلة أخرى متبقية لازالته وكان هناك حظ من النجاح لا يقل عن الخمسين بالمئة لكي لا تذهب التضحية سدى ويتمكن الفساد أكثر من قبل •

وقد وضع الامور في نصابها البابا بولس السادس في رسالته « ترقي الشعوب » حيث قال : « من المعلوم ان الفتنة الثورية ـ الا في حال طغيان فاضح مديد يصيب اصابة جسيمة حقوق الشخص الاساسية ويؤذي خير البلاد العام ايذاء مميتا ـ تنتج مظالم جديدة وتحدث اختلالات جديدة وتجلب دمارا جديدا . فليس بجائز أن يكافح شر واقعي بشر أعظم » (١) .

أما أن تكون الثورة غاية في حد ذاتها فذلك ما يعجز العقل عن فهم جدواه . يقول فيديل كاسترو بأن واجب كل ثوري أن يصنع ثورة . ويدعو ماوتسي تونغ أهل الصين الى الثورة الدائمة . ويحث دوبري وماركوزي على الثورة من أجل الثورة .

ان الثورة من أجل الثورة ، والثورة ضمن الثورة ، والثورة المستمرة ، هي دعوات الى التفاني والعدم . هي حركة وعنف وتغيير من أجل الحركة والعنف والتغيير . هي تمجيد للنشاط الثوري باستقلال عن الغاية . انها عبادة وثنية للعمل ذاته ، وذلك داء وبيل من أدواء العصر .

وقد ردد الثوريون في بلادنا هذه المعاني ، مقلدين ، تابعين ، لاحقين باثر كل ما هو سلبي وفوضوي ، مبتهجين كالاطفال بالعنف والتمرد والسلب والتدمير وقلب الاشياء . وقالوا بالثورة من أجل الثورة وبالثورة المستمرة وبالعمل الثوري المجيد ، وتحدثوا عن الثورة على الذات والثورة الداخلية وقصدوا بذلك الى الحرب الطبقية ، وعلموا ان هذا الصراع الناتج هو غاية في حد ذاته .

وقد غالت المدرسة الثورية في هذا اللغو الثوري ، حتى ان كاتبا غير بعيد عن الثورة وشؤونها كتب يقول : « وظهرت أيضا نماذج مخيفة

(١) رسالة البابا بولس السادس « ترقي الشعوب » ، ص ٣١ .

من الطفولة الثورية ترضع الشعارات ولا تكبر بعدها » (١) .

والثورة التي يتحدث عنها الثوريون في بلاد العرب ليست الثورة الحقيقية الرائعة التي يقوم بها الشعب تحركه فكرة كبيرة أو مبدأ كبير أو مثل أعلى فيهب للدفاع عن الحرية والكرامة والحق في الحياة ، وانما هي انقلاب يقوم به جزء من القوات المسلحة ويستولي على السلطة في ظلام الليل . والظاهرة العامة في ثورات العقدين الاخيرين في بلاد العرب هي أن يحدث انقلاب أو ضربة حكم ثم يبحث الانقلاب عن مبادىء وبرامج وقضايا يبرر بها عمله ، ثم يفرض على المجتمع قوانين جديدة وتحولات كبيرة ويقول انها ثورة . وقد اعترف بشيء من هذا محمد حسنين هيكل عندما كتب : « ثم ظهرت المغامرات التي يغري فيها البريق عن المضمون ويضيع فيها الفاصل بين الثورة وبين مجرد الانقلاب ويسهل فيها دائما كتابة البلاغ رقم (١) عن حدوث تغيير ، ثم يصعب فيها دائما كتابة البلاغ رقم (٢) عن أهداف التغيير وخطة عمله .. » (٢) .

وقد ألقت « البرافدا » ذات يوم درسا على كوبا ينفع الثوريين التأمل فيه . لقد كتبت الصحيفة الناطقة باسم أم الثورات في هذا القرن ، تقول : « كل ثورة حقيقية أصيلة هي بدون شك شأن داخلي خاص بكل بلد . والماركسيون مقتنعون بأن محاولة فرض الثورة من الخارج غير مجدية . لا تنجح ثورة ولا تحقق نتائجها الاستقرار الا اذا نضجت الافكار الثورية داخل البلاد وتشربت أكثرية الامة بها (٣) .

والمدرسة الثورية في بلاد العرب في العقدين الاخيرين هي صاحبة انقلابات . أما التغيير الثوري الذي أحدثته فهو تغيير فرض بالقوة

(١) محمد حسنين هيكل ، الاهرام ، ١٢ آب ١٩٦٦ .
(٢) هيكل ، الاهرام ، ١٢ آب ١٩٦٦ .
(٣) عن الانترناشيونال هيرالد تريبيون ، في ٢٠ اذار ١٩٦٨ .

ـ قوة السلاح وقوة الدولة ـ ولم يكن هناك رأي عام يؤيده ولا حدث بقوة الارادة العامة • هو تغيير فرض من فوق ، من السلطة القابضة على السلاح وليس من الشعب الموجه للسلطة المراقب لها • ولذلك فالادق أن يكون الحديث عن المدرسة الانقلابية أو عن الانقلابيين في بلاد العرب •

والتغيير بالانقلاب أو الاستيلاء على الحكم بالانقلاب هدم معاني كثيرة عند العرب في هذا الجيل •

أولا ، هدم الدولة لانه هدم قوانين الدولة ، ولا تقوم دولة بدون قوانين مرعية محترمة مقدسة في نظر المواطنين جميعا ، حاكمين ومحكومين • وسيبقى موقف سقراط خير تعبير وأروعه وأقواه عن هذه الحقيقة التي ما زالت أقوام في الثلث الاخير من القرن العشرين تجهلها وتتخبط في جاهلية عمياء • ففي سنة ٣٩٩ قبل الميلاد حكمت أثينا على سقراط بالموت بتهمة الالحاد وافساد الشباب ، وليلة تنفيذ حكم الاعدام دبر أصدقاؤه طريقة لانقاذه وجاءوا يقنعونه بضرورة الهرب ، وكانت سلطات أثينا مستعدة للاغضاء والسماح له بالهرب ، فأبى سقراط وأقبل على الموت تنفيذا للقوانين التي كان يرى وجوب احترامها ولو كانت جائرة ، وسجل أقواله افلاطون في حوار اقريطون على النحو التالي :

سقراط : لنفرض ان الدولة والقوانين جاءت وأنا أحاول الهرب ، وسألتني : « أخبرنا يا سقراط ماذا تصنع ؟ ماذا تبغي بمحاولتك الهرب غير تهديمنا نحن القوانين وتهديم المدينة بأسرها بقدر ما تستطيع ؟ أتعتقد ان دولة يمكن أن تبقى اذا كانت قوانينها غير مرعية واستخف بها المواطنون ؟ » هل أجيب : « ان الدولة أساءت الي ، وأخطأت الحكم في قضيتي ؟ » •

اقريطون : « نعم تقول ذلك بالتأكيد يا سقراط » •

سقراط : ولنفرض ان القوانين أجابت : « أكذلك كان العهد بيننا ؟ ما الذي تشكوه منا ومن الدولة حتى تحاول هدمنا ؟ ألسنا ، أولا ، أهلك وذويك ؟ بنا أخذ أبوك أمك فولداك • خبّرنا هل لك اعتراض على قانون الزواج ؟ » ، « كلا ، سيكون جوابي • « أم هل تنتقد تلك القوانين التي تنظم تربية الطفل وتثقيفه ، وقد تثقفت بها مثل الكثيرين سواك ؟ ألم نحسن صنعا اذ أمرنا والدك أن يعلمك الرياضة والموسيقى ؟ » • « قد فعلت ذلك » ، سأجيب • « ما دمنا اذن قد أتينا بك الى العالم وربيناك وثقفناك فكيف تنكر انك ولدنا وعبدنا كما كان أبواك من قبل ؟•• لا يحق لك أن تنتقم من أبيك أو مولاك اذا أساءا معاملتك ، ولا أن تجيبهما اذا وبخاك ، ولا أن تضربهما اذا ضرباك ، ولا تقابل شرهما بشر بأي حال • وهل تعتقد انه يجوز لك أن تنتقم من بلادك ومن قوانينها ؟ وان حاولنا اعدامك معتقدين اننا على حق ، فهل تعمل ما تستطيع لاعدامنا نحن القوانين واعدام البلاد مدعيا انك تفعل بذلك الصواب ، أنت الرجل الذي يقدر الفضيلة كل التقدير ؟ أفلا ترى ان بلادك أفضل منك ، وأجلّ ، وأكرم ، وأقدس ، وأشرف بنظر الآلهة وجميع العقلاء من أبيك وأمك وأسلافك كافة ، وان واجبك المفروض أن تقدسها وتطيعها وتخشع لها أكثر من خشوعك لابيك •• وأن تفعل ما تأمرك به أو أن تحملها على الصفح عنك ، وأن تطيعها بصمت اذا أمرتك أن تحتمل الجلد أو السجن ، أو أرسلتك الى الحرب لتجرح أو تموت ••

« انه مخالف لشريعة الله أن تؤذي أمك أو أباك ، وانه لاعظم من ذلك بكثير أن تلحق الاذى ببلادك » •

ثانيا ، اذا لم تكن هناك سيادة للقانون فالدولة دولة طغيان يتحكم

فيها مستبد واحد أو قبضة من المستبدين ، وليس في ظل هذه الدولة حرمة لحق وكرامة لمواطن أو حرية لانسان ٠

ثالثا ، دولة الانقلاب تولد مع نقض العهد والحنث في اليمين ، فالضابط يوم أصبح ضابطا قد أقسم يمين الولاء لرئيس البلاد الشرعي وأقسم على صيانة الدستور واطاعة القوانين والدفاع عن أرض الوطن ، وهو ليلة الانقلاب يخون رئيسه ويمزق دستور البلاد ويتمرد على القانون ويهدم نظام الدفاع عن الوطن ، ويكون قد أوجد سابقة خطيرة وسن سنة سيئة لضابط آخر يخونه ويمزق قوانينه ويطيح بحكمه ٠

الدستور والقوانين لا تحمي الضابط الانقلابي لانه هدمها بفعله الاول أو الخطيئة الاولى ٠ وليس له أن ينتظر الولاء والوفاء وقد هدم معنى الولاء والوفاء بما صنع هو في مستهل عهده ٠ دولة الانقلاب ليس فيها وفاء أو صدق ولاء أو حسن اخاء ٠ انها تقوم على الغدر والتآمر والخيانة ٠ انها تهدم مثلا أعلى من المثل العربية العليا وفضيلة كان يعرف بها العربي وتجري بها الامثال بحيث كان يقال : « الوفاء عند العرب » ٠

والواقع المر الاليم ان المدرسة الانقلابية هدمت القيم العربية الاصيلة والانسانية وهدمت مقومات المجتمع الانساني العربي ٠ ولقد قال مفكروها صراحة ان غاية الثورة هي تغيير القيم الاجتماعية عند العرب ٠ لقد هدموا القيم القديمة فما هي القيم الجديدة التي قدموها ؟ الثورة من أجل الثورة ، والثورة في الثورة ، والثورة على الثورة ، والانقلابات التي لا تنتهي والاستقرار الضائع وهذا الحصاد المرير من الخراب والدمار ٠

لقد كانت حصيلة هذه الاجتهادات الثورية تخريبا منظما مستمرا وتدميرا للمجتمع وسحقا للانسان في بلاد العرب ٠

لكن المدرسة الثورية تزعم انها تعمل للتقدم السريع وللتنمية الاقتصادية ، وتزعم انها تحاول التغلب على مشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي بالوصول الثوري الى التقدم ٠ وفي رأينا ان المدرسة الثورية تخطىء قراءة التاريخ وفهم الحضارة وطبيعة التقدم ٠ كذلك تخطىء في نظرتها السطحية الى موضوع السرعة في التقدم ٠

فالتاريخ هو كل ما مرت به الانسانية من تجارب وأحداث وخطوب وكل ما اكتشفت وما اخترعت وكل ما صنعت ٠ التاريخ تراث الانسان ٠ وتاريخ العرب هو سجل حياة العرب منذ وجدوا ووعوا وجودهم ونظروا الى أنفسهم ونظر العالم اليهم على انهم عرب ٠

ان تاريخ العرب لا يبتدىء مع انقلاب عسكري حدث في اذار سنة ١٩٤٩ أو في يوليو ١٩٥٢ أو في اذار ١٩٦٣ ، كما ان تاريخهم لا يمكن أن يكون سلسلة أحداث عسكرية وضربات حكم ليس غير ٠

والحضارة بناء متواصل وتعاون أجيال متعاقبة على البناء ٠٠ انها عمل الانسانية جمعاء في شتى أقطارها وعلى مدى أربعة آلاف عام ٠ ويشمل سعيها العلم والفلسفة والفن والعمران والحياة الاجتماعية والتنظيم السياسي والتدبير الاقتصادي وجماع الخبرة والحكمة والمعرفة ٠

وليس التقدم في أن نهدم بناء الحضارة ونبدد التراث الانساني كله ٠ فالامم التي تقدمت وارتقت هي الامم التي حافظت على قيم قديمة، موروثة ومكتسبة ، وأضافت اليها قيما جديدة، مواصلة البحث والاكتشاف والاختراع والبناء ٠

وكل انسان واع يريد التقدم ويبحث عن الافضل والاتم ، وليس على وجوب التقدم والترقي خلاف ، وانما المسألة هي : هل نتقدم بالتطور أم نتقدم بالثورة ٠ كيف نتقدم وما هي الطريقة السليمة المضمونة

للتقدم ؟ المدرسة الثورية تقول بالثورة والعنف والانقلاب ، وتقول نحن بالتطور اذا أمكن التقدم بالتطور ، والا فآخر الدواء الكي ، والكي هو الثورة التي تهدم أوضاعا غير قابلة للتطور وتخلق أوضاعا جديدة يمكن فيها التقدم بالتطور ، اذ ان الثورة وحدها لا تستطيع أن تحقق تقدما ، فهي في أحسن الحالات وسيلة لصنع وضع جديد قابل للتقدم بالتطور •

هذا وان الشعوب الراقية والمجتمعات المتقدمة قادرة على متابعة تقدمها بدون ثورة وعنف وخروج على الدستور وهدم لاسس الاجتماع وتقويض لمؤسساته • لا شك ان كليمانت اتلي الذي رأس حكومة العمال في بريطانيا سنة ١٩٤٥ قام بثورة كبرى في حياة بلاده ، لكنها كانت ثورة هادئة شرعية جرت في ظل التقاليد الدستورية وقادها الرجل بدون حقد ومرارة وغضب • لقد سلك طريق العقل والتشريع واللجان البرلمانية لا طريق الشعارات والمظاهرات والانقلابات العسكرية والمراسيم الصادرة عن سلطة الانقلاب • وكان اتلي بطريقته المتمدنة المتحضرة الدستورية ثوريا ومصلحا جذريا أكثر من كرومويل وأكثر من كثير من رجال اليسار الثوري في العالم الصاخب •

واذن فان الاصلاح العميق والتغيير الجذري والثورة الحقيقية يمكن أن تتحقق بدون انقلاب ودماء وتهديم لكيان الامة ومؤسسات الدولة • والملاحظ ان اليسار الثائر في القرن العشرين لم يستطع أن يقوم بثورات ناجحة في البلدان المتقدمة • والبلاد التي ظفرت فيها الثورات بالحكم ، مثل روسيا ويوغوسلافيا والصين وكوبا ، لم تكن بلاد الرأسمالية المتقدمة التي تكهن ماركس بأنها مؤاتية للثورات •

وحيثما لجأ اليسار المتطرف الى وسائل ثورية في البلدان المتقدمة كانت النتيجة نجاحا لليمين وزيادة في الاصوات التي ينالها وأكثرية في

المجالس ، كما حصل في ألمانيا ، وفي فرنسا في حزيران ١٩٦٨ •

ان الرغبة في الوصول الى تنمية اقتصادية سريعة هي رغبة ملحة ومحقة في البلدان المتخلفة • وهي الوسيلة الى تلبية حاجات الشعوب في تحسين مستوى العيش وتوفير الخدمات العلمية والصحية واتاحة فرص العمل والامل والراحة والتمتع بخيرات الارض والصناعة والحضارة • وقد أظهر تاريخ القرنين الاخيرين طريقتين للتقدم الاقتصادي السريع • الاولى هي طريقة الدول الغربية المتقدمة (أوروبا الشمالية الغربية والوسطى وشمالي أميركا وأوستراليا ونيوزيلندا) حيث كانت السوق الحرة هي الاداة الرئيسية لاحداث النمو الاقتصادي السريع • وكانت المبادرة الفردية ورأس المال الخاص في طليعة الاسباب الدافعة للتقدم الاقتصادي في الغرب في هذه الحقبة • وساعدت على النمو الاقتصادي عوامل كثيرا ما تكون مفقودة في البلدان المتخلفة وهي حكم مستقر ، وجهاز من الموظفين الاكفاء ، ومستوى عال من التعليم ، ووسائل نقل ومواصلات مكتملة ، وخبرة تكنولوجية ومهارة ادارية •

والطريقة الثانية للنمو الاقتصادي السريع كانت بواسطة الدولة الشيوعية الكلية الشاملة • والمثال البارز هو الاتحاد السوفياتي وما حقق من تقدم صناعي ونمو اقتصادي في العقود الاخيرة •

وهناك طريقة ثالثة سلكتها بعض الدول النامية مثل الهند والمكسيك والبرازيل • فقد استعارت هذه الدول من البلدان المتخلفة الفكرة القائلة بأن التطور الاقتصادي يمكن أن تخطط له الدولة ، لكنها قررت انها تريد التخطيط للتنمية بدون دولة البوليس الشاملة التي تعتمدها الشيوعية • وهذا تأليف بين الحكم الديمقراطي والتخطيط الاقتصادي حاولت الدول النامية المذكورة أن تجمع فيه بين الحرية والخطة المدروسة، وبعضها قد حقق نجاحا كبيرا مثل حكومة المكسيك •

وفي العالم العربي معسكران : معسكر الثوريين ومعسكر التطوريين • وفي معسكر الثوريين لم تكن التدابير الاقتصادية كلها صادرة عن خطة مدروسة على ضوء حاجات البلاد وضرورات التنمية بل كثيرا ما كان الاقتصاد تابعا للسياسة والسياسة بدورها تابعة لحزبية ضيقة • وقد بيّن الدكتور منيف الرزاز كيف ان موضوعا دقيقا خطيرا مثل التأميم كان يستعمل كسلاح وأداة صراع بين القيادة القومية والقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي • وهذه كلماته في « التجربة المرة » : « ثم صدرت بعد ذلك مباشرة قرارات التأميم المشهورة، في الجو المشحون ، وفي ليلة واحدة ، لاثبات يسارية العسكريين والقطريين ويمينية القوميين » (١) وكانت المنافسة الضارية على السمعة اليسارية والشهرة التقدمية لا على الخير العام والمصلحة الحقيقية للاقتصاد وللبلاد •

وقد قدمت مجلة « الايكونوميست » في عددها الصادر في أول نيسان ١٩٦٧ دراسة عن الاقتصاد العربي بعنوان « كيف ينمو العرب ؟ » وتناولت ستة من بلدان الشرق العربي هي مصر وسورية والعراق من الدول الاشتراكية ، والعربية السعودية والاردن ولبنان من بلدان المبادرة الحرة • وانطلقت من القول بأن لا تقدم بدون نمو اقتصادي وان مقياس النمو الاقتصادي هو الدخل القومي بالنسبة للفرد • وقررت في هذه الدراسة بأن الدول الاشتراكية أكثر تعرضا لعدم الاستقرار السياسي وانها معنية بتوزيع الدخل القومي توزيعا أقرب الى المساواة ، لكنها بلغت حدا أصبح معه الاغنياء أقل غنى والفقراء لم يغدوا أقل فقرا • أما بلدان المبادرة الحرة فتمر في مرحلة من التطور كلاسيكية حيث يصبح الاغنياء أغنى بكثير لان الربح حافزهم ، والفقراء ليسوا أقل فقرا بكثير •

(١) الرزاز ، ص ١١٧ .

لكن الظاهرة الاجتماعية الكبيرة في هذه البلدان هي انها خلقت طبقة وسطى لم تكن من قبل • ان مد التاريخ قد اكتسح الايديولوجيات وأوجد هذه الطبقة الجديدة • وأحدث مد التاريخ أيضا موجة أخرى من العمال الصناعيين يزداد عددهم وتحسن أجورهم • لكن حظ الفلاحين ما يزال سيئا •

وقارنت « الايكونوميست » بين دخل الفرد في البلدان الستة المذكورة ، وانتهت الى النتيجتين التاليتين :

أولا ، ان الحكم المستقر هو المفتاح الحقيقي للتقدم •

ثانيا ، ان الشعوب ذات الثقافة المتشابهة والتي على درجة واحدة من التطور تستطيع — اذا ما أتيح لها الحكم المستقر — أن تتقدم بمعدل غير متباعد على اختلاف المعسكرات ، لكن النمو الاقتصادي يترجح في البلدان التي تركت للمبادرة الفردية العنان • والجدول الآتي يبين دخل الفرد لسنة ١٩٦٥ في البلدان العربية المذكورة :

البلد	دخل الفرد بالاسترليني
مصر	١٧٠
العراق	٢٠٣
سورية	١٧٦
لبنان	٢٨٥
الاردن	٢٢٢
العربية السعودية	١٩٧

ان أعلى دخل للفرد سجل في لبنان ، ويأتي بعد لبنان الاردن ،

وليس للبلدين دخل استثنائي من عائدات البترول . واذن فانه يمكن القول بأن التنمية الاقتصادية وازدياد دخل الفرد وارتفاع مستويات الحياة ، كل ذلك يتحقق أفضل ما يتحقق في البلدان المستقرة وفي الانظمة الاقرب إلى الديمقراطية . وتقول لنا الدراسات العلمية وتجارب الامم والاحصاءات والارقام ان الاستقرار شرط للازدهار وان التقدم بالتطور أضمن وأسلم وأحسن عاقبة من محاولة التقدم بالثورة والانقلاب .

الجيش العقائدي

« لم تعد بروسيا بلادا تملك جيشا ، وانما هي جيش يملك بلادا » .

(ميرابو)

وحملت الايديولوجية الثـــــورية معها فيما حملت فكرة الجيش العقائدي والجيش الثوري • لكن الانقلابات العسكرية في بلاد العـرب وتقدم الجيوش للاستيلاء على الحكم وفرض الانظمة العسكرية عـلى البلاد كان قد سبق نظريات الثوريين واجتهادات الانقلابيين • وقـد أعطت نكبة ١٩٤٨ وقيام اسرائيل حجة للجيوش العربية للاستيلاء على الحكم ، ثم وجد الانقلابيون أسبابا أخرى هي ضرورة التنمية الاقتصادية والتقدم السريع واصلاح النظام الاجتماعي القديم ••

ورأى الثوريون في بلاد العرب انهم لن يستطيعوا الوصول الـى الحكم عن طريق الشعب وبواسطة عد الاصوات في الانتخابات فوجهـوا جهودهم الى صفوف الضباط محاولين الوصول الى الحكم والبقاء فيـه بقوة السلاح وولاء الضباط لهم وانقياد الجنود • فالوثوب الى الحكـم بانقلاب أسرع وأسهل من سلوك طريق الشورى والانتخاب •

ووجد في الغرب من يقول بأن للجيوش دورا في سياسة البـلدان المتخلفة • ونشر هذا الرأي في مجلات محترمة وفي دراسات جامعية في أميركا وفي كتب صدرت في انكلترا برعاية المؤسسة الملكيـة للشؤون الدولية • وقيل صراحة على صفحات الكتب والمجلات بأنه من الافضل للغرب أن يتعامل مع حكام أقوياء فـي الشرق الاوسط ، وان الاحرار والديمقراطيين في الشرق العربي قد فشلوا في حكم بلدانهـم المتخلفة ،

وان الطبقة الجديدة المؤلفة من ضباط الجيش والخبراء هي أكثر أهلية للحكم والاصلاح .

والعجيب في هذا النصح والارشاد الصادر من المراجع العلمية في الغرب هو انه مخالف لافضل ما يعلم الغرب عن وظيفة الجيش في المجتمع ومخالف للمبادىء والقواعد والاصول التي تقوم عليها الدولة المتمدنة الحديثة في الغرب نفسه . ان دور الجيش في الدولة المتمدنة ليس أن يحكم ويأمر وانما أن ينضبط وينفذ ويطيع . والضباط لا يدربون ليكونوا مشترعين وواضعي سياسة وانما يتدربون على القتال وعلى تنفيذ أوامر السلطة المدنية واطاعة القوانين .

في جمهورية حرة منظمة حديثة مثل الولايات المتحدة الاميركية يصرف من الخدمة جندي عظيم وبطل من أبطال الحرب مثل ماك آرثر ، ويصرفه من الخدمة رجل عادي في البيت الابيض اسمه هاري ترومان .

في دولة متمدنة حرة لا يسمح لامراء البحر وقادة الجند أن يبدوا آراء سياسية في شورى السياسة والحرب . فقد روى سكرتير سابق لوزارة الحرب في بريطانيا ما حدث بين اميرال ورجل دولة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وما يضع الامور في نصابها بغض النظر عن الاسلوب . « في اجتماع احدى اللجان أبدى الاميرال ايفانز لونب (Admiral Evans Lombe) جرأة غير عادية . فبعد أن تحدث حديثا قصيرا عن الجوانب البحرية لمشكلة معينة قال : (من وجهة النظر السياسية ...) وعندها قاطعه رئيس الوزراء ونستون تشرشل بشدة قائلا : (وجهة النظر السياسية ليست من شأنك يا اميرال . من الخير لك أن تعمل على رفع مستوى خبرتك المهنية وتستطيع أن تترك الشؤون السياسية لنا . وعالمنا يكون عالما أسلم وأفضل اذا ما انصرف أمراء البحر والجنرالات الى اختصاصهم) .

لقد كان تشرشل يعبر بطريقته الخاصة عن مبدأ أساسي من مبادىء السياسة والحكم ردده قبله بأجيال ذلك الشيخ الروماني العظيم شيشرون بكلماته الكلاسيكية : (Cedant arma Togae) يخضع السلاح للوشاح. وبكلام عصري : يجب أن يخضع الجيش للسلطة المدنية . وهذا معناه ان السيادة في الدولة للقانون وليس للسلاح ، للرأس المفكر المشترع وليس لليد القوية المنفذة ، للبرلمان لا للثكنات .

هذا مبدأ مسلم به في العالم الراقي ، وقلما تتعرض الدولة المتقدمة لمخاطر الحكم العسكري ، وان هي تعرضت له في ظروف أزمة مصيرية فان الشعب يهب للدفاع عن حرياته ويرد الجيش الى مكانه من نظام الدولة . أما البلدان المتخلفة فيسهل أن تقع فريسة لحكم جيوشها كما هي الحال في كثير من بلدان أميركا اللاتينية وآسيا الجنوبية الشرقية وافريقيا السوداء وبلدان الشرق الاوسط . والحكم العسكري نفسه هو ظاهرة تخلف ، وكثيرا ما يكون أداة لاستمرار التخلف . والبلدان الاكثر تقدما في أميركا اللاتينية هي التي تخلصت من حكم الجيش وانقلاباته التي تذهب باستقرار البلاد ، ووضعت الجيش في مكانه الطبيعي من نظام الاشياء ، وأبرز مثال على ذلك هي دولة المكسيك .

ان استيلاء الجيش على الحكم ليس الا حلا موقتا في أحسن الحالات . فاذا استطاع الجيش أن يقوم بمهمة معينة سريعة ويعيد الامور الى نصابها فانه يكون قد أنهى دوره السياسي وعاد الى وظيفته الطبيعية. وقد حدث هذا مرتين في تاريخ تركيا الحديث . فقد ابتدأ مصطفى كمال عمله جنديا وقائدا ثوريا ، ثم تحول الثائر الى رجل دولة بتدبيرين : أولا ، عند تأسيس الجمهورية ، أصر على أن يختار الضباط بين العمل السياسي وترك الجيش ، أو البقاء في الجيش والعمل العسكري فحسب. وكانت حجته انه اذا كان المهم حفظ الدولة وصيانة الدستور فان البلاد

لا تحتاج الى حزب عسكري وانما تحتاج الى جيش قوي من جهة والى حزب قوي من جهة أخرى • وقال بأن الضابط الذي يحاول أن يخدم سيدين يصبح جنديا سيئا وسياسيا سيئا ، وعلى الضباط أن يقرروا البقاء في الحزب والاستقالة من الجيش أو البقاء في الجيش والخروج من الحزب •

ثم اتخذ أتاتورك الخطوة الثانية بأن عمل على قيام حزب معارض ليكون في البلاد حزبان يتداولان الحكم وينظمان الشورى •

وهكذا قدم مصطفى كمال خدمة كبرى لبلاده بأن قرر فيها سيادة السلطة المدنية ، واختصاص الجيش في شؤون الدفاع ، وأعطى الدرس البليغ بأن نجاح النظام العسكري يتوقف على مقدرته على انشاء مؤسسات مدنية فعالة تجعل التدخل العسكري عرضيا لا لزوم لاستمراره ولا داعي لعودته • ان ذروة نجاح العسكريين في الحكم هي في استغناء البلاد عن الحكم العسكري واقامة مؤسسات مدنية صالحة للعمل والخدمة والبقاء •

وقد تكررت سابقة مصطفى كمال حين قام الجيش التركي بانقلاب سنة ١٩٦٠ وغيَّر ما أراد تغييره ثم أرجع الحكم للمدنيين وللمؤسسات المدنية في خلال سنتين •

أما حيث يحاول الجيش أن يبقى في الحكم فانه يعرض نفسه لان يخسر فضائله العسكرية وخصائصه بالاضافة الى ما يلحق من أذى بالدولة والبلاد •

كيف يخسر الجيش فضائله عند اشتغاله بالسياسة وانصرافه الى شؤون الادارة والحكم ؟ ولماذا يفقد بالضرورة مزاياه ؟

الفضائل العسكرية كما يبين كارل فون كلوزفتس Karl von Clausewitz

ثلاث(1) : الشجاعة، والطاعة والانضباط، وروح الجماعة Esprit de corps هذه الفضائل مع مواهب القائد وشعور الجيش الوطني هي دعامات القوى المعنوية للجيوش •

وهناك صفات أخرى ملازمة كتلك الفضائل عُرف بها العسكريون في جميع البلاد ذات التقاليد العسكرية ، وفي طليعتها الشرف والشهامة والحزم وكفاءة ناتجة عن انتظام الامرة والطاعة • ويمتاز العسكريون بهذه الصفات عند قيامهم بواجباتهم العسكرية المنصبة على غاية واحدة هي الدفاع عن الوطن • أما بعد أن يتحركوا الى الميدان السياسي فانهم يفقدون هذه الصفات الممتازة •

ان اشتغال الجيش بالسياسة يحطم القوى المعنوية التي أشرنا اليها ويبدد الفضائل العسكرية على النحو التالي :

أولا ــ الجيش المشتغل بالسياسة تنعدم في صفوفه الامرة والطاعة والتسلسل والانضباط ، وتفقد المراتب والرتب معناها البعيد ، ويفقد الجيش نظامه •

ثانيا ــ الجيش الذي يشتغل بالسياسة ويتوزع أفراده شيعا يفقد روح الجماعة ويضطرب فيه الولاء ولا يكون وحدة مقاتلة في الميدان • فالجيش جسم ينظمه التسلسل والانضباط والتقاليد العسكرية وروح الجماعة واحترام السلطة • وهذه كلها تحطم في ساعة الصفر مع الانقلاب الاول •

ثالثا ــ الجيش المنقلب يفقد عناصره المدربة في تصفيات متلاحقة هي أبعد ما تكون عن الضرورة العسكرية ، فالضباط الكبار المشتركون

(1) Clausewitz, De la guerre.

في الانقلاب يقضي بعضهم على بعض ويبقى في الميدان أكثرهم مغامرة وأقلهم تأثرا بالوازع الوطني والرادع الاخلاقي والعامل العسكري ، وبذلك يخسر الجيش خير القادة وأفضل المواهب • ثم ان الضباط المنتصرين الطامحين يتآمر بعضهم على بعض وتقوم محاولات انقلابية اذا هي نجحت سرحت الضباط المناوئين لها ، وان فشلت سرح أصحابها من الجيش ، وفي الحالين يحرم الجيش من عناصر مدربة ينبغي أن تنقضي سنوات عديدة للتعويض عنها ، هذا اذا لم تتكرر القصة مع كل جيل يتخرج من المدرسة العسكرية ويسلك طريق الانقلاب المؤدية حتما الى تحطيم الجيش كقوة مقاتلة لحماية الوطن •

رابعا ــ ان الجيش المشتغل بالسياسة والانقلاب لا يصرف أعظم اهتمامه للتدريب واستكمال عدة القتال واقتباس الفنون الحربية والاساليب الحديثة في التعبئة والتموين والنقل ، ولا يجد وقتا كافيا لرفع مستواه علما وتطبيقا • ولو انقطع الجيش النظامي انقطاعا تاما لصناعة الحرب لا يكاد يلحق بالاختراعات الجديدة والاساليب المستحدثة والابحاث العصرية ، فكيف اذا خرج عن دائرة اختصاصه ومن حدود وظيفته الطبيعية الى غير اختصاصه والى عمل ينافي طبيعته وما وجد له ؟

خامسا ــ ان الجيش الذي يمارس الادارة والحكم تتغير طبيعته العسكرية ويصبح طبقة حاكمة جديدة مستأثرة مع كل المساوىء التي تلازم الحكم المطلق المستند الى القوة القاهرة • وقد تحدث الرئيس جمال عبد الناصر عن هذه الظاهرة في مصر بعد نكسة حزيران فقال : « ان مراكز القوى القديمة تتمثل في طبقة من العسكريين السياسيين بعضهم أدى دوره في الثورة ولكن الثورة تجاوزت قدرتهم وتجاوزت مصالحهم وتجاوزت استعدادهم للتطور • كانوا يريدون السلطة •• ان هذه الطبقة العسكرية السياسية كانت قد وصلت الى حيث اعتبرت نفسها وريث

شرعي للثورة ، أو بمعنى أدق وريث للحكم ، أو بمعنى اكثر تحديدا ان الثورة بالنسبة لهم أصبحت هي الحكم والحكم بالنسبة لهم أصبح مظاهر ومغانم » (١) •

ومن أراد أن يكوّن فكرة واقعية عن الجيش المشتغل بالسياسة فليقرأ ما كتب الفريق عبد الكريم زهر الدين في مذكراته عن فترة الانفصال في سورية • انها قصة تعيسة للاوضاع التي ينحدر اليها الجيش حين ينصرف همه الى الاستيلاء على الحكم ، قصة فيها من التفاهة والصغار والغدر والتآمر والتفكك والانحلال ما تبكي له الملائكة وما تلهو به الشياطين وما يستنكره حتى القائد الذي شارك في تلك الفصول من المأساة والذي أشرف على أدوارها • يتحدث عبد الكريم زهر الدين عن اجتماع مجلس الدفاع وقادة الالوية الذي عقد في أوائل نيسان ١٩٦٢ ، على اثر مؤتمر حمص الذي حضره عدد من الضباط وقرروا فيه المطالبة بأمور كثيرة ، منها نقل بعض الضباط و « تسفيرهم بالسرعة الكلية خارج البلاد » ، وتشكيل حكومة انتقالية جديدة تضع لها المنهج الذي ستسير عليه القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة • وهذه كلمات زهر الدين بل شهادته بل اعترافه :

« ••• وترأست شخصيا هذا الاجتماع ، الذي افتتحته بكلمة أبديت فيها أسفي لما حصل في هذا الجيش ، الذي كانت العروبة تعتبره درعها المتين وحصنها الحصين ، وقلت بأنني سأنجز المهمة المتعلقة بتشكيل القيادة الجديدة وأنسحب من هذا الجيش الذي فقد الصفات العسكرية ، وتجاهل أبسط قواعد الانضباط ، وسبب الدمار وعدم الاستقرار للبلد الذي لم يبخل عليه بتسليح وتجهيز ، مقتطعا ثلاثة أرباع موازنته عن مشاريعه العمرانية والتطورية لتقديمها لجيشه الذي كان يحترمه ويجله

---

(١) خطاب جمال عبد الناصر في حلوان ، ٣٠ اذار ١٩٦٨ •

ويقدره ، والذي أصبح الآن لا يضمر له الا الحقد والكراهية والشر ، لانه يلاحظ بأن الاموال التي يدفعها المواطن والمكلف السوري في سبيل تقوية الجيش وتمكنه من الدفاع عن حدود البلد وصد أي عدوان خارجي، أصبحت تستعمل ضده ، نعم ضد المواطن وضد الشعب • وأصبح كل ضابط فينا يعتقد بأن الدبابة التي يقودها أو المدفع الذي يصوبه أو السلاح الذي يفتخر به ، انما هو ملك له ورثه عن والديه ، وهو حر التصرف به ، حتى بات المواطن لا يرى في الشوارع الا أسلحة موجهة الى صدره عوضا عن توجيهها الى صدر العدو » (١) •

هذا وقد دلت التجارب على ان الجيوش الكلاسيكية المنضبطة المتمسكة بالتقاليد العسكرية والخاضعة خضوعا تاما للسلطة المدنية هي التي تحسن صناعة الحرب وتمتاز في القتال • ودلت التجارب أيضا على ان الجيش الذي يعجز عن قتال جيش العدو كثيرا ما تحدثه نفسه باستعمال قوته ضد خصومه في الداخل وفرض سلطانه على الشعب • ويجب أن يتأمل العرب مليا ما قرره أناس انصبوا على دراسة دور العسكريين في الشرق الاوسط فقالوا : ان الدولة الوحيدة التي حققت انتصارات عسكرية في ميدان القتال في العقدين الاخيرين هي الدولة الوحيدة التي لم يقع فيها انقلاب •

ان « جيش الدفاع الاسرائيلي » كان دائما بعيدا عن الخلافات الايديولوجية والمشاكل السياسية ، وكان جيشا منضبطا ، تقليديا ، خاضعا للسلطة المدنية ، وقد ربح هذا الجيش ثلاث حروب في عشرين سنة من وجوده •

وملاحظة أخرى تفرض نفسها فرضا هي ان من بين الجيوش العربية

(١) عبد الكريم زهر الدين : « مذكراتي عن فترة الانفصال السورية » ، ص ٢١٦ — ٢٢٠ •

التي اشتركت في القتال في حرب حزيران ١٩٦٧ كان الجيش الذي قاتل أفضل قتال ، على قلة عتاده وضعف غطائه الجوي وصغر بلاده ، هو جيش كلاسيكي منضبط عامل ضمن التقاليد العسكرية • أما الجيوش العقائدية التابعة للدول الثورية فانها لم تنصف السلاح الحديث الممتاز الذي كان بين أيديها • وكم هي خطيرة ورهيبة تلك الحقيقة التي أشار اليها محمد حسنين هيكل بقوله : « وهناك أوهام المغامرين الذين روعهم أن يفقدوا سلطتهم أكثر مما روعهم أن يفقد الوطن قطعة من ترابه تعيش الآن أسيرة في قبضة العدو » (١) •

أحقا وجد في العرب من تجرأ على أن يقول بأن مهمة الجيش هي حفظ الثورة والدفاع عن النظام قبل الدفاع عن أرض الوطن ؟

اذا لم تكن مهمة الجيش الدفاع عن أرض الوطن فما هي مهمة الجيوش في العالم ، ولماذا يوجد الجيش أصلا ؟ ما هي وظيفته وما مبرر وجوده ؟

اني أعلم ان هناك نظرية لستالين عن « الاستراتيجية والتكتيك للحرب الثورية الشيوعية » يقول فيها : « أول قواعد الاستراتيجية عندنا هي الادراك المبكر سلفا ، هل في الحرب نفع للزحف الشيوعي الثوري أو ليس هناك نفع • لذلك فالاستراتيجية عندنا لا بد أن تخضع لهذا الاعتبار السياسي العقائدي وأن نخضع الجيش النظامي لهذا الاعتبار بلا أخذ ورد وكلام المهني العسكري » • ويذهب ستالين أبعد من ذلك في تطبيق مبدأ خضوع الاستراتيجية العسكرية للتكتيك الثوري : « وحتى لو اضطررنا أن نخسر أرضا ومدنا وجماعات من الشعب الروسي ، فان ذلك كله محدود الاعتبار بالقياس الى صيانة الثورة •• نحن لا نؤمن

(١) الاهرام ، ٢ شباط ١٩٦٨ •

بتضحية الثورة من أجل مجد عسكري أو أي نموذج آخر من مفاهيم البرجوازيين للشرف والنظرة القومية » •

هذا منطق الثوريين ، ولعل بعض الذين دفعوا العرب دفعا الى الاخذ بالمذاهب الشيوعية كانوا يريدون للعرب أن يقعوا في شرك منطق مخيف يجعل التخلي عن أرض الوطن عملا ثوريا مجيدا • وللثوريين أن يتكلموا ما شاءوا عن الاستراتيجية والتكتيك والايديولوجية الثورية ، فان ذلك لن يغير شيئا من موقف الانسان السوي والرجل الشريف والمواطن الصالح الذي يدفعه واجبه الصريح الى الدفاع عن بيته وعائلته ووطنه وأمته ، والى الاستماتة في الدفاع عن هذه القيم جميعا •

أما الدفاع عن الثورة وتسليم أرض الوطن للاعداء فله اسم آخر في معجم الاخلاق عند الناس وفي نظر الله الذي أعطانا وطنا وحملنا أمانة وسيحاسبنا يوما على صنيعنا بالامانات •

ان ستالين نفسه ، بالرغم من السفسطة الثورية التي انساق في تيارها ، أدرك عندما تقدمت الجحافل الالمانية لتحتل الارض الروسية بأن حكومته ونظامه الاجتماعي لا يستطيعان الصمود أمام ضربات الجيش الالماني ما لم يستمدا العون من وطنية الشعب الروسي ومعتقداته القديمة •

يروي ميلوفان جيلاس في كتابه « أحاديث مع ستالين » انه علم من مسؤولين كبار سوفييت بأن البطريرك الروسي أذاع عند ابتداء الحرب رسائل كنسية ضد الغزاة الالمان بدون أخذ رأي الحكومة ، وان تلك الرسائل لاقت رواجا كبيرا تعدى حلقات الكهنة والمصلين الى الجمهور الكبير • وكانت تلك الرسائل ، على عكس الدعاية السوفياتية الرتيبة ، تتألق وتنبض بالروح الوطنية الدينية القديمة • ولاحظت الحكومة السوفياتية اثرها في الشعب فراحت تشجعها وتلتمس المزيد من عون

الكنيسة • وقاد ستالين معركة المصير كوطني روسي يدافع عن الوطن والارض والمدن والقرى • وانتشرت روح الوطنية الروسية في البلاد بحيث ان مطران أمان رفع كأسه وشرب نخب ستالين « موحد الديار الروسية » (١) •

ان بعض الثوريين من العرب تنبهوا قبل كارثة حزيران الى ظاهرة الحكم العسكري وقالوا انها أصبحت ظاهرة في منتهى الخطورة وانها أصبحت تهدد الحركة القومية العربية تهديدا خطيرا (٢) ، لكن أولئك الثوريين لم يشخصوا الداء تشخيصا دقيقا ولا رجعوا الى أصل العلة وانما تورطوا في مزيد من الخطأ • لقد انتقد الرزاز حزب البعث لان الحزب قصر نشاطه على اشراك الضباط الكبار ولم يتناول الجنود وضباط الصف والضباط الصغار •• « كان يجب على الحزب أن يتجه الى الجنود وضباط الصف والضباط الصغار الى جانب اتجاهه للضباط الكبار ، ويخلق معهم صلات حزبية منظمة ليعامل الجيش كقطاع لا كبضعة ضباط يسيطرون على الجيش » (٣) •

قد استشفيت من داء بداء   وأقتل ما أعلّك ما شفاك

فالرزاز لا يرى خطأ أن يشتغل الضباط بالسياسة ويخرجوا عن دائرة اختصاصهم • انه يحث على أن يكون الجيش كله مرتبطا ارتباطا عضويا بمؤسسات الحزب ، مشتغلا كله بالسياسة والحكم • ووصفته الكلية الشافية لعلل اليسار وأدواء البلاد هي في المزيد من الداء وفي تعليمات قاطعة للتمادي في الخطأ :

« على اليسار أن يعبىء الجيش ، كما يعبىء الجماهير ، تعبئة ثورية

(١) Milovan Djilas, Conversations with Stalin, P. 42.
(٢) الرزاز ، ص ٧ •
(٣) الرزاز ، ص ٤٤ •

ليكون أداة نضال مع جماهير الشعب ، وهذه التعبئة يجب أن تحقق شرطين أساسيين : أولهما ، الاهتمام بالقواعد أكثر من الاهتمام بالقيادات . فثورية القيادات وحدها تحقق انقلابا . وثورية القواعد تحقق ثورة . ثانيهما ، ربط هذه التعبئة ربطا عضويا حيا بتعبئة الجماهير ليكون قطاع الجيش قطاعا من قطاعات الجماهير » (١) .

ومعنى هذا الكلام ان دور الجيش هو أن يكون أداة من أدوات الثورة داخل المجتمع ، أي أداة لخدمة حزب الاقلية الفارضة نفسها بالقوة على البلاد ، وليس جهازا من أجهزة الدولة للدفاع عن الشعب كله والوطن .

هذا المنطق الثوري هو في طليعة المسؤولين عن كارثة حزيران .

وعندما يصبح الجيش أداة حزبية تنشأ هوة سحيقة بينه وبين الشعب ، فلا يحارب الجيش ، ولا يوجد للدفاع عن الشعب ، وانما يعتبر مهمته حماية الحزب ونظام الثورة وحكومة الانقلاب ، أي حماية الحكم من الشعب وضد الشعب . وهذا تحول خطير في مهمة الجيش وانسلاخ عن وظيفته الطبيعية في نظام الدولة وجري وراء المغامرات .

وفي معركة حزيران ظهر ضعف الجيش « العقائدي » وظهرت النتائج الخطيرة للانحراف عن وظيفة الجيش الطبيعية وعما وجد له أصلا . كانت الجيوش التابعة للدول الثورية في عزلة عن شعوبها ، ان لم نقل عدوة للشعوب ، بينما كان جيش اسرائيل جيشا من المواطنين المسلحين المحاربين : ستون ألفا من النظاميين ومئتا ألف من الاحتياط ، والقوة مجتمعة في وحدة مقاتلة وراءها شعب موحد الاهداف وحكومة قومية تضم جميع الاحزاب باستثناء الحزب الشيوعي .

---

(١) الرزاز ، ص ٣٠٣ .

وليس صحيحا ان النظم العسكرية أو الدكتاتورية أقدر على الحرب من النظم الديمقراطية ، ولسنا نحتاج الى أن نذهب بعيدا في البحث عن شواهد تاريخية . وهذه اسرائيل الدولة التي يخضع فيها الجيش للسلطة المدنية ، والسلطة المدنية في يد حكومة برلمانية . انها ديمقراطية من النمط الغربي ، وقد انتصر نظامها الديمقراطي على نظم عسكرية حكمت البلاد العربية باسم ضرورات الحرب عشرين عاما منذ قيام اسرائيل .

لقد قيل كلام كثير في تفوق اسرائيل العلمي والتكنولوجي والحضاري ، وقد يكون في هذا شيء من الحق ، لكن الهزيمة لم تقع لان اسرائيل متفوقة في العلم والتكنولوجيا والعرب متخلفون في هذا الميدان . السلاح الذي كان تحت أيدي الجيوش العربية لا يقل جدة وكثرة وطاقة عن سلاح اسرائيل . وقد درب كثيرون من العرب على الطيران الحربي وعلى استعمال الاسلحة الحديثة ، وكانوا متفوقين فنا وشجاعة واقداما في مراحل التدريب ، ولكن الذين دربوا وتفوقوا لم يكونوا في مكانهم الطبيعي من قطعات الجيش وأسراب الطيران وعلى جبهات القتال ، انما كانوا في أثناء المعركة مسرحين من الجيش أو عاملين في وظائف مدنية ، بعيدين عن ميادين القتال وعن أسلحتهم وما دربوا له وأعدوا من أجله . فالايدي الخبيرة الباسلة لم تكن على السلاح الفعال الحديث . وهذا سببه ، كما قدمنا ، النظم العسكرية التي صرفت الجيش عن اختصاصه وحرمته من عناصره المدربة لاعتبارات حزبية وجعلته قوة بوليسية تحكم بواسطتها البلاد .

التكنولوجيا لم تخن العرب وانما العرب الثوريون هم الذين خانوا التكنولوجيا والعلم والسلاح . والخطأ الاساسي ليس في التخلف العلمي والتكنولوجي ، المبالغ فيه على كل حال ، وانما في نظام للاشياء لا يفيد من العلم الذي دفع ثمنه ومن التكنولوجيا التي عاناها . نظام للاشياء

يضيع العلم والمتعلمين والخبرة والخبراء والتكنولوجيا والتكنوقراطيين ، لانه يؤثر « الحمرة على الخبرة » ، على طريقة أصحاب الثورة الثقافية من أهل الصين ، ويقدم الولاء للحزب أو للحاكم على أي اعتبار آخر .

على العرب من مدنيين وعسكريين أن ينظروا بتجرد كبير واخلاص شديد الى هذا الموضوع وليحاولوا أن يجيبوا بجد وصدق على مثل هذه الاسئلة ، على ضوء تجربة عقدين كاملين وثلاث حروب مع اسرائيل :

أولا — هل أزال الحكم العسكري ، حيث وجد ، الفساد ؟

ثانيا — هل حققت الانظمة العسكرية استقرارا حقيقيا ؟

ثالثا — هل حققت الانظمة العسكرية الازدهار الاقتصادي وهل رفعت مستوى الحياة للفرد ؟

رابعا — هل قامت القوات المسلحة في ظل الحكم العسكري بواجبها الاول ، الذي هو الدفاع عن أرض الوطن ، وبالمهمة التي جاءت باسمها الى الحكم وبقيت باسمها في الحكم عشرين عاما ، ألا وهي استعادة الحق العربي في فلسطين ؟

وهل دافعت عن الوطن الدفاع الحسن ، وهل حفظت الارض ومن عليها وما عليها ؟

وهل كان الجيش جيشا ؟

وهل كان الجندي جنديا ؟

عندما تكون السياسة الخارجية ثورية

« ان سياستنا الخارجية تتميز بالصلابة في تعهد مصالح الدولة للشعب السوفياتي ، وفي ضمان حرمة حدودنا البرية وشواطئنا وفضائنا الجوي ، وفي حماية شرف العلم السوفياتي وحقوق المواطنين السوفيات وسلامتهم » .

(اندره غروميكو)

ان الوزير البريطاني العتيق ، اللورد بالمرستون (Palmerston) الذي قال يوما (ليس لنا عداوات دائمة ، ولا صداقا دائمة ، وانما لنا مصالح دائمة) ، لم يكن أكثر واقعية وأصلب وطنية من وزير خارجية الاتحاد السوفياتي حين حدد بكل صراحة أسس السياسة الخارجية لدولة الاتحاد السوفياتي ، فجاءت مبنية على المصلحة الوطنية كما تراها الدولة الكلاسيكية .

ان السياسة الخارجية لاية دولة ، أكانت الدولة امبراطورية محافظة من القرن التاسع عشر أم دولة ثورية في القرن العشرين ، تمليها مصلحة الدولة ، وفي طليعة مصالح الدولة الحفاظ على سلامة أرض الوطن وحدوده وسلامة المواطنين وحقوقهم . ولا تتقيد الدولة ، بما هي دولة ، باعتبارات عقائدية أو دينية أو فلسفية في تصريف شؤونها الخارجية ، ولا تتقيد حتى بالاعتبارات الخلقية والادبية ، وانما تدخل في حسابها هذه الاعتبارات ، كلها أو بعضها ، اذا وجدت لها في ذلك مصلحة حقيقية . ذلك هو ناموس حياة الدول .

أما الدولة العربية الثورية فقد خالفت هذه القاعدة ، وهي ان الدولة تستوحي سياستها الخارجية من مصلحتها العليا ، وراحت تخضع سياستها لاعتبارات شتى تعارض في كثير من الاحيان المصلحة الحقيقية للدولة وللامة العربية .

أولا ، أخضعت السياسة الخارجية للاعتبار الايديولوجي فصادقت الدول الاشتراكية الثورية وأنشأت معها علاقات خاصة ، وأهملت الدول الديمقراطية وعادت بعض تلك الدول ، كما خاصمت دولا اسلامية مجاورة وبعيدة وافتعلت معها الازمات •

ثانيا ، عالجت الشؤون الخارجية غوغائيا ، أي انها لم تكـن لتنظر الى المصلحة القومية في انشاء العلاقات الخارجية وتعهدها ، وانما كانت تعادي هذه الدولة وتصادق تلك ، وتهاجم حين تهـاجم ، وتهادن حين تهادن ، وهي تنظر الى اثر فعلها وقولها عند الرأي العام العربي أو لدى الجماهير العربية • فاذا كان توجيه التهم والشتائم الى دولة مـا يجلب رضا الجمهور في بلادها فذلك أقصى ما تسعى اليه الدولة القائمـة على أجهزة الاعلام من اذاعة وصحافة وتلفزة •

وللدعاية سلطانخاص بها ، ولها ما يمكن أنيدعى « قوة ـ الحياة » (life - force) • انها قادرة على أن تصبح سياسة ، أو تصنع سياسة ، وتضطر الزعماء الى أن يعملوا هذا الذي وعدوا به • وفي جو الدعايـة الغوغائية يفلت زمام الامر من يد رجل الدولة ويتولى الداعية أو المذيـع عمل وزير الشـؤون الخارجية ومهام وزير الدفاع • في الدولة الاذاعية يصبح المذيع سيدا ، ويأخذ اللسان مكان الدماغ في الجسم الاجتماعي وفي نظام الاشياء • وقد كتبت مجلة « الاكسبرس » الفرنسية فيحزيران ١٩٦٧ تقول : ان تصريحات السيد أحمد الشقيري قبيل الحرب قد قامت بعمل ثلاث فرق في الجيش الاسرائيلي ، من حيث اثرها السيىء فـي العالم وحشدها الرأي العام العالمي الى جانب اسرائيل •

لقد كانت السياسة الخارجية للدولة العربية الثورية اذاعية غوغائية خاضعـة لما يرضي الجماهير العربيـة ويسخطها لا لما يحقق المصلحـة العربية العليا •

ثالثا ، لم يكن العقل هو الذي يرشد السياسة الخارجية الثورية الى المصلحة وانما كانت العاطفة هي التي تلعب بالسياسة الخارجية ، وكثيـرا ما كانت الحكومة الثورية تتحمس لقضايا بعيـدة عن العالم العربي ولا علاقة لها بمصلحة العرب ، مندفعة وراء الهـوى ، متأثرة بحادث عابر أو حديث لا طائل تحته أو دعم كلامي بتصريح وخطاب • والعرب ، منذ كانوا ، معرضون لان يعالجوا شؤونهم العامة متأثرين بالعاطفة والهوى ، مسوقين بالنزعة الخطابية ، مأخوذينبمظاهرة ودية ، لكن المدرسة الثورية تجاوزت كل حد في ممارسة هذا الضعف البشري عند العرب •

رابعا ، لم تكن السياسة الخارجية الثورية مبنية على العلم بالاوضاع الدولية والفهم الصحيح للقضايا المطروحة والاحاطـة بحقائق الاشياء • كانت تتصرف وكأنها جاهلة للواقع أو متجاهلة له ، قد بنت لنفسهـا صورة وهمية عن العالم وراحت تعيش في أسر تلك الصورة •

والحكومة العربية الثورية ، وهي توجه شؤون السياسة الخارجية « عقائديا » ، أو « غوغائيا » ، أو « عاطفيا » ، وتتخبط جهلا أو تجاهلا أو توهما ، قد أقامت علاقاتها مع العالم على افتراضات خاطئة ، هذا ان كانت قد أقامت سياستها على شيء من التفكير أصلا •

أول هذه الافتراضات ان العالم منقسم الـى معسكرين متعادلين : المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، وان القطبيـــن الكبيرين : الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، يستقطبان الـدول ويتقاسمان العالم ويؤلفان كتلتين متنافستين ، ويقودان فيما بينهما حربا باردة يمكن أن تغـدو حارة في أي وقت ، وأن لا سبيل الى التعايش السلمي بينهما ، وأن لا بد من المواجهة في يوم من الايام •

والافتراض الثاني هو ان الولايات المتحدة الاميركية ودول العالم الغربي مؤيدة لاسرائيل بشكل نهائي ، وان اسرائيل والولايات المتحـدة

شيء واحد في حسابات الشرق الاوسط وان لهما سياسة واحدة تجاه العرب ، وان الاستعمار الغربي يؤلف مع اسرائيل جبهة واحدة في النزاع القائم بين العرب واليهود •

والافتراض الثالث هو ان الاتحاد السوفياتي صديق للعرب ومؤيد للقضية العربية ضد اسرائيل وحليفتها أميركا تأييدا نهائيا مطلقا ، وان الدول الشيوعية تابعة للاتحاد السوفياتي في الصداقة والعداء •

والافتراض الرابع هو ان اسرائيل صنيعة المستعمرين ، قد أوجدها الاستعمار الغربي في قلب العالم العربي استمرارا لنفوذه وحفظا لمصالحه في المنطقة ، فهي ظاهرة استعمارية غربية لا أكثر ، وتابعة للغرب الاستعماري ، والتابع تابع ، كما تقول قاعدة في مجلة الاحكام •

وهذه الافتراضات وما يصاحبها ويتفرع عنها مبنية على أخطاء كثيرة ومقدمات غير صحيحة ومعطيات لم تعد واردة ونظرات لا تطابق الواقع وآراء لا تصمد لحظة أمام امتحان •

أولا ، ان العالم كما نجده اليوم لم يعد منقسما الى معسكرين اثنين ثابتين ، ولم تعد الدول مستقطبة لقطبين اثنين متنازعين ، وانما هناك نوع من التوازن الدينامي ، كما يقولون ، فالصين تخرج من مدار الاتحاد السوفياتي ، وفرنسا تفصل نفسها شيئا فشيئا عن المنظمة العسكرية للحلف الاطلسي وتمد جسورا من التفاهم والتعامل مع دول أوروبا الشرقية • وليست الحرب الباردة قائمة على قدم وساق كما كانت في العقد السادس من هذا القرن • ولقد تطور الوضع الدولي العام من الحرب الباردة والمواجهة على أيام ستالين ، الى سياسة « الحصر » (Containment) على زمن دالس ، الى الانفراج فالتوفيق فالتسوية والتعايش السلمي على عهد الرئيسين السابقين خروتشوف وكندي ، الى

التفاهم والتعاون والاتصال المباشر بين الرئيسين جونسون وكوسيغين •

والقطبان الكبيران ، أميركا وروسيا ، متفقان على استبعاد الحرب النووية بينهما ، قد اضطرهما الرعب الذري والخوف المشترك من الصين الى الاتفاق على أمور معينة أساسية تتصل بقضية السلم والحرب في العالم • وقد عقدا سلسلة من الاتفاقات تتناول الشؤون القنصلية بين البلدين ، ومشكلات ارتياد الفضاء ، والطيران التجاري ، والتبادل الثقافي ، ووضعا معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية ، وهما يتحركان الآن نحو محادثات مقررة لوقف سباق التسلح النووي وللاتفاق على الحد من استعمال الصواريخ للدفاع والهجوم • وقد أقاما خطا للاتصال مباشرا بين الكرملين والبيت الابيض ، واستعمل هذا الخط الاحمر في أزمة الشرق الاوسط ، فكان القطبان الكبيران في أثناء حرب الايام الستة يتبادلان الرسائل السريعة المباشرة ويتشاوران كما يفعل الحلفاء في الازمات ، ويحصران الحرب بين العرب واسرائيل ضمن دائرة لا تتعداها ، ويشرفان اشرافا عاليا مشتركا على المنطقة كلها وعلى سياسات حكوماتها وتحركات جيوشها ، حتى لكأن الرئيس جونسون والرئيس كوسيغين كانا يلعبان لعبة الشطرنج على رقعة الشرق الواسعة ويحركان البيادق والرخاخ بضبط ورعاية لاصول اللعبة الكلاسيكية ، لعبة الملوك والسلاطين منذ القديم •

ووضح للعالم مدى تعاون الدولتين الكبيرتين في اجتماع غلاسبورو في حزيران ١٩٦٧ وفي اشتراكهما في قرار مجلس الامن في تشرين الثاني ١٩٦٧ •

ثانيا ، ان كان هناك ما يسمى بـ « توازن الرعب » بين الدولتين المالكتين للاسلحة النووية والصاروخية ، فليس هناك توازن حقيقي في القوى بالنسبة الى الاسلحة التقليدية والطاقة الصناعية • وفي ميزان

القوة الستراتيجية السياسية الشاملة برز رجحان كفة الولايات المتحدة في أزمة كوبا واستمر رجحان الكفة الاميركية حتى يومنا هذا • وقد سجل هذا الرجحان في تحليل دقيق الشيخ فولبرايت ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي ، في كتاب نشره سنة ١٩٦٤ وجاء فيه ما يلي :

« على الرغم من ان الوقت لم يحن بعد لاصدار حكم نهائي ، فان هناك دلالة متصاعدة على ان أحداث السنوات الاخيرة قد أحدثت تغييرات عميقة في طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب • في أزمة الصواريخ الكوبية ، في تشرين الاول سنة ١٩٦٢ ، برهنت الولايات المتحدة للاتحاد السوفياتي على ان سياسة العدوان والمغامرة تنطوي على مجازفات غير مقبولة • وبتوقيع معاهدة حظر التجارب أكد كل فريق للجانب الآخر انه يمتنع ، على الاقل في الوقت الحاضر ، عن أية محاولة لتحقيق كسب عسكري أو سياسي حاسم •

« ويجب أن يضاف بأن هذه المحادثات قد وقعت على أساس واضح من تفوق الولايات المتحدة الستراتيجي •

« وعليه فانه يبدو معقولا القول بأن طبيعة الحرب الباردة قد تغيرت تغيرا عميقا ، في الحاضر على الاقل ، بتراجع الاتحاد السوفياتي عن سياسات عدوانية متطرفة ، وبالرفض الضمني ، من قبل الطرفين ، لسياسة « النصر الشامل » ، وبقيام تفوق استراتيجي أميركي يبدو ان الاتحاد السوفياتي قد سلم به ضمنا ، لان ذلك التفوق قد رافقته تأكيدات بأن يمارس من قبل الولايات المتحدة بمسؤولية وكبح وتقييد •

« هذه التغييرات الهامة جدا قد ينظر اليها المؤرخون على انها المنجزات الرئيسية لحكومة كندي في حقل السياسة الخارجية • وقد

تنج عنها اننا التزمنا بسياسة خارجية يمكن أن تعرف بدقة — وربما ليس بحصافة — بأنها سياسة التعايش السلمي (peaceful coexistence) » (١) •

ثالثا ، ان سياسة الاتحاد السوفياتي تقررها مصلحة الاتحاد السوفياتي كما يراها رجال الاتحاد السوفياتي وخبراؤه ، ولا تتأثر بصداقة للعرب أو عداوة لاسرائيل • بل لقد جاء وقت كان الاتحاد السوفياتي مندفعا الى أبعد حد في تأييد اليهود ، تبنى قضيتهم في الامم المتحدة ، في مرحلة حاسمة من مراحل القضية ، واشترك مع أميركا بالدعوة الى تقسيم فلسطين وخلق وطن قومي لليهود • وأدى ذلك التعاون بين الدولتين الكبيرتين الى اقرار مشروع التقسيم في الجمعية العامة في تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧ • وعندما تراجعت أميركا عن فكرة التقسيم واقترحت وضع فلسطين تحت وصاية دولية موقتة تمسك المندوب السوفياتي السيد غروميكو بقرار التقسيم وأصر على تنفيذه ، كما كافح بعد ذلك مشروع الوسيط الدولي الكونت برنادوت في الابقاء على وحدة فلسطين واستفتاء أهلها العرب • ثم تسابق الاتحاد السوفياتي مع حكومة ترومان على الاعتراف باسرائيل في الساعات الاولى من اعلان مولدها يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ، واعترف بها اعترافا قانونيا كاملا (De Jure) بينما جاء الاعتراف الاميركي على أساس الامر الواقع (De Facto) (٢) •

وكان الاتحاد السوفياتي دائما حريصا على بقاء اسرائيل وحمايتها ، وما زال ملتزما بالحفاظ على كيانها ، لم تتغير سياسته بالنسبة لاساس الموضوع قيد شعرة • ثم انه في أزمة السويس سنة ١٩٥٦ لم يتظاهر بالتأييد القوي لمصر وبالتهديد الشديد لفرنسا وانكلترا الا بعد أن عرف موقف الولايات المتحدة واستنكار الرئيس ايزنهاور للعمل الاحمق الذي

---

(١) Senator J. W. Fulbright, Old Myths and New Realities, P. 4 - 6.

(٢) الدكتور عمر حليق ، موسكو واسرائيل ، عرض مدعم بالوثائق لجهود موسكو في خلق اسرائيل وابقائها •

أقدم عليه حلفاؤه بدون استشارته ، وخلف ظهره ، وفي ظروف محرجة لمعركته الانتخابية .

والاتحاد السوفياتي في حزيران من سنة ١٩٦٧ لم يكن مستعدا للتدخل المباشر في الحرب انتصارا للدول العربية الصديقة التي أمدها بسلاحه وخبرائه وقروضه . وكان موقفه في أثناء الازمة مربكا للعرب داعيا للحيرة والاضطراب ، فبعد التحذير من الحشد الاسرائيلي وبعد التشجيع على مواقف التصلب واظهار القوة ، طلب الى مصر ، في مسعى متواز مع مسعى الولايات المتحدة ، ألا تكون البادئة بالهجوم وأن تتجنب الحرب .

ثم ان الاتحاد السوفياتي لا يبدو اليوم جادا في الضغط على الولايات المتحدة ، أو في السعي المشترك معها ، لتنفيذ قرار مجلس الامن المتخذ في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٦٧ . وهذا وزير خارجية الجزائر عبد العزيز بو تفليقة يقول على اثر حضور مؤتمر الخرطوم بأن التعايش السلمي يتطور في الاساس على حساب دول العالم الثالث المستقلة ، ويضيف : « لقد ذهبنا الى نيويورك وتحققنا هناك من شيئين : أولا ان مقتضيات التعايش السلمي تتقدم على مصالح العرب ، وثانيا ان منظمة منهاتن هي كليا في أيدي الاميركيين » (١) .

ويستطيع غير الوزير الجزائري أن يقول مع المتنبي :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا   فلما دهتني لم تزدني بها علما

ولسنا نلوم الاتحاد السوفياتي . من ذا يلوم القضاء والقدر وطبيعة الاشياء ؟

(١) Une Interview du Ministre Algérien des Affaires Etrangères, Le Monde, 16 août 1967.

ان الاتحاد السوفياتي يعالج المشكلة الفلسطينية من زاويته الخاصة، بمنظار مصالحه الوطنية ، وعلى ضوء أهدافه البعيدة في المنطقة ، آخذا بعين الاعتبار علاقاته بالولايات المتحدة واستبعاد المواجهة المباشرة واحتمالات الحرب الشاملة .

رابعا ، ان الولايات المتحدة الاميركية دولة ـ قارة ، وعالم واسع متطور متحول متقدم بخطوات جبار ، وهي برج بابل هذا الزمان ، فيه التيارات المختلفة والمصالح المتضاربة والنزعات المتباينة والمدارس والسياسات والافكار ، ولا يمكن أن يضبط هذا العالم الواسع المتحرك بصيغة واحدة أبدية ولا يمكن أن يتجمد على سياسة نهائية لا تتغير ولا تتبدل الى آخر الدهر . فهذا مخالف لسنة الدول وللتغير المستمر والتحول الدائم في أحوال البشر . وتاريخ السياسة الاميركية في الشرق الاوسط في العشرين سنة الماضية يقدم الدليل على ما نقول . فقد اندفعت الحكومة الاميركية ، في عهد الرئيس ترومان ، اندفاعا كليا في تأييد اليهود وأسرعت الى الاعتراف باسرائيل في الساعات الاولى من اعلان قيامها وبذلت لها كل دعم مادي ومعنوي . لكن الحكومة الاميركية اعتدلت في عهد الرئيس ايزنهاور وسكرتير الدولة دالس ، وكانت أقرب الى تفهم موقف العرب وأكثر عطفا على قضيتهم . وقد روى الاستاذ فاينر ، الذي أرخ لدالس دوره في أزمة السويس ، ان الوزير الاميركي كان يسلم بأن هناك شيئا من الحقيقة في زعم العرب بأن الرئيس ترومان تبادل الخدمات مع اليهود فضمن أصواتهم في انتخابات الرئاسة وضمنوا صوته في الامم المتحدة (١) .

وفي أيام الرئيس كندي كانت الحكومة الاميركية تدخل في حسابها

(١) Herman Finer, Dulles over Suez, P. 13 - 14.

الصلة الخاصة التي كانت قائمة يومذاك بينها وبين مصر ، وتعمل على ايجاد حل يرضاه الفريقان •

وفي عهد الرئيس جونسون ساءت العلاقات الاميركية ــ المصرية منذ سنة ١٩٦٥ لاسباب لم تتوضح تماما ، وتطور موقف الحكومة الاميركية من النزاع العربي ــ الاسرائيلي الى مواقع حزيران ١٩٦٧ •

وهذا كله يدل على ان السياسة الاميركية يطرأ عليها من التطور والتحول والتبديل ما يطرأ عادة على شؤون الافراد والجماعات والدول ، وتتغير بتغير الحزب الحاكم والرجال الذين يدخلون البيت الابيض ويشرفون على ادارة الشؤون الخارجية •

ثم ان الولايات المتحدة الاميركية هي أقوى دولة وأغنى دولة في العالم كما يعلم جيدا الثوريون ، وهي البلاد المتقدمة صناعيا والمتفوقة علميا وتكنولوجيا في هذا العصر التكنولوجي ، وهي الى ذلك كله معنية بالشرق الاوسط ولها فيه مصالح استراتيجية ومصالح اقتصادية ، ولا يمكن أن يتحقق السلام أو يتحقق شيء من العدالة في الارض العربية اذا لم تجنح الولايات المتحدة للسلم والعدالة في هذه المنطقة •

واذن فمن سوء السياسة وخطل الرأي أن يعتبرها العرب عدوا مطلقا لا سبيل الى كسب صداقته ، ولا سبيل الى جعله يقف على الحياد على الاقل ، أو يرتد في يوم من الايام الى شيء من الانصاف ، كما يجدر بأمة عظيمة أن تفعل حين تكون واثقة من نفسها ، حكيمة في سياسة العالم • فالقوة العظمى مسؤولية عظمى تاريخية ومعنوية ، والسلطة ، في أعلى مفهوم لها ، هي دائما أمانة ، بكل أبعاد هذه الكلمة• هذا وحين تراجع أميركا نفسها ستجد ان مصلحتها في الشرق الاوسط تفرض التفاهم والتعاون مع أهل الشرق الاوسط من عرب ومسلمين •

وفي أميركا تيارات مختلفة كما قدمنا ، واذا كان لليهود أصوات يحسب حسابها الرجل الاميركي العام الذي يخوض الانتخابات ، واذا كانت لهم مؤسسات ضخمة وسيطرة كبيرة على وسائل الاعلام ، فان في الولايات المتحدة أوساطا وجماعات لا تتأثر بالنفوذ الصهيوني ، وربما ضاقت باليهود في بلادها ، وربما منعت دخولهم الى نواديها • ولا يستبعد أن يأتي يوم تعيد فيه الوطنية الاميركية النظر في وضع اليهود في أميركا ، وهم الذين يتمتعون بنفوذ أكبر بكثير مما يخولهم اياه عددهم وسعيهم وولاؤهم المزدوج لاميركا واسرائيل • وهم ممثلون في معظم القطاعات الاميركية بنسبة أعلى بكثير من نسبة اليهود لمجموع السكان ، وهي نسبة لا تتعدى الثلاثة في المئة •

ولا يستبعد أن يأتي يوم آخر يدخل فيه البيت الابيض أميركي كبير مثل بنجمان فرنكلين ، أو رجل دولة من وزن ديغول وارتفاع أفقه ، فيتخذ موقفا أميركيا خالصا من الحركة الصهيونية في بلاده ومن اسرائيل •

ولعل اسرائيل ، بوسائلها الخفية ، أرادت للعرب أن يعادوا الولايات المتحدة عداء لا هوادة فيه ، وأن يقبلوا على صداقة الاتحاد السوفياتي اقبالا لا تحفظ فيه ، لتخلص لاسرائيل صداقة أقوى دولة في العالم وأغنى دولة على الاطلاق ، ولتصور العرب للرأي العام الاميركي على انهم حلفاء الروس في المنطقة ، وأن ليس للولايات المتحدة وللغرب عامة غير اسرائيل قلعة لهم في الشرق الاوسط • وبهذا تكون اسرائيل قد اختارت الحليف الاقوى والحصان الرابح في الميدان •

خامسا ، وليس الغرب كله ، وعلى الدوام ، مع اسرائيل • وأقرب دليل على ذلك موقف الرئيس الفرنسي ديغول • فبعد أن زودت المصانع الفرنسية اسرائيل بالطائرات التي ربحت بها الحرب ، اتخذ الجنرال

ديغول قبيل الحرب وفي أثنائها وبعد وقوعها موقف الحكم من النزاع ، فحذر اسرائيل من أن تكون البادئة بالحرب ، ثم اتخذ موقف اللائم المقرع لها لانها لم تعمل بنصيحته • وكان في ذلك ينظر الى اعتبارات تتعلق بمصلحة فرنسا وسمعتها وسلطانها الادبي في العالم ، وقد ساءه أن يتصرف اليهود الفرنسيون وكأن ولاءهم الاول لاسرائيل •

وقال الجنرال ديغول في اليهود كلاما هو أبلغ وأخطر ما صدر عن رجل دولة معاصر • لقد نسب موجات العداء التي قامت ضد اليهود في بلاد مختلفة وعصور مختلفة الى صفات كامنة في الطبع اليهودي ، مذكرا « ان اليهود ظلوا كما كانوا منذ القديم شعب نخبة ، واثقا من نفسه ونازعا الى السيطرة ، وانهم قد يتحولون ، اذا ما انتظم شملهم ، الى طموح عنيف غاز لتحقيق رغبات كونوها منذ تسعة عشر قرنا » • ووصف اسرائيل بأنها « دولة محاربة ومصممة على التوسع » • وأوضح ان التدابير التي اتخذتها لمضاعفة سكانها باستقبال عناصر جديدة من المهاجرين اليها ترك مجالا للظن بأن الارض التي استولت عليها لن تكفيها طويلا وانها ستلجأ ، لكي تتوسع ، الى استغلال كل فرصة تسنح (١) •

والغرب الذي تحول موقفه ، في فرنسا ، من التحالف والتآمر مع اسرائيل سنة ١٩٥٦ الى الحياد والتوازن والاعتدال ، وأكاد أقول التأييد ، سنة ١٩٦٧ ، يمكن أن يتحول موقفه في انكلترا وألمانيا وسائر الدول الغربية الى جهة الاعتدال وربما الى التأييد لقضية الحق في ظروف، لا نستطيع التنبؤ عنها ، ولكن نستطيع أن نتوقع دائما تغير الازمان وتقلب الاحوال في شؤون البشر أفرادا ودولا وجماعات • وبما ان قضية العرب عادلة ، وبما انهم يملكون قطعة من الارض غنية بمواردها ، هامة

(١) تصريحات الجنرال ديغول في مؤتمره الصحفي في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، Le Figaro, 28 Nov. 1967.

بموقعها الجغرافي وشأنها الاستراتيجي ، فان تحول الدول الى جهتهم ليس عسيرا ولا مستبعدا اذا أحسن العرب تصريف شؤونهم وأجملوا اتصالهم بالعالم •

سادسا ، يهوّن كثيرا من شأن اسرائيل ومن كيدها وخطرها من يصورها على انها صنيعة الاستعمار لا أكثر • ذكّر مرة بن غوريون العالم بأن لليهود خبرة أربعة آلاف سنة • ولا نعدو الحقيقة اذا اعتبرنا اليهود جمعية سرية مستمرة في التاريخ ، عاملة في الخفاء ، على نطاق العالم الواسع • ويتطلع اليهود ، منذ ألفي عام ، الى الاستيلاء على فلسطين واعادة بناء هيكل سليمان ، مرددين شعارهم القديم : « السنة القادمة في أورشليم » •

واذن فان مطامع اليهود في فلسطين أقدم بكثير من الاستعمار الغربي الذي عرفناه في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين • وليس الاستعمار الغربي هو الذي أعطى اليهود أحلامهم ، فقد وجدت تلك الاحلام التاريخية قبل أن يوجد الاستعمار والمستعمرون • هذا وان كانت بريطانيا تتحمل المسؤولية الكبرى في موضوع « الوطن القومي » فان الوسائل التي لجأ اليها اليهود لانتزاع الوعد من الحكومة البريطانية تعتبر نموذجا كلاسيكيا لممارسة الضغط والتأثير الناجح في الاروقة والردهات (lobbying) (١) • فوعد بلفور ، سنة ١٩١٧ ، تصريح أعد مسودته اللورد روتشيلد (Rothschild) وأرسله الى وزارة الخارجية البريطانية ، حيث أدخل عليه الوزير بلفور (Balfour) تعديلات طفيفة ، ووزعه على أعضاء الوزارة • وبذل السياسي اليهودي البريطاني هربرت صموئيل (Herbert Samuel) وحاييم وايزمن وأصحابهما جهودا جبارة لانتزاع الوعد من حكومة لويد جورج • ولجأ

(١) The Jewish National Home, The Times, Nov. 2, 1967.

اليهود يومذاك الى وسائل مختلفة في الضغط على الحكومة البريطانية ، زاعمين تارة بأن الالمان كانوا على وشك اصدار تصريح مؤيد للحلم الصهيوني في فلسطين (وقد ردد بلفور هذه الحجة في مجلس الوزراء) وملوحين تارة أخرى باستطاعة اليهود الروس أن يبقوا روسيا في الحرب (١) • وكان ذلك في أسوأ سنة من سنوات الحرب العالمية الاولى وفي أحرج الظروف لبريطانيا وحلفائها •

كذلك كان لليهود اثر حاسم في نوع الانتداب الذي اصطنع لفلسطين • لقد كانت الخطة الانكليزية ــ الفرنسية للشرق الاوسط ، المتضمنة في اتفاقية سايكس ــ بيكو (Sykes - Picot) لسنة ١٩١٦ ، تقضي بتدويل فلسطين • لكن الصهيونيين أدركوا ان وصاية عدة دول على فلسطين تبدد آمالهم في انشاء دولة يهودية ، فعملوا من أجل فلسطين بريطانية وكان لهم ما أرادوا (٢) •

هذا وكل شيء يشير الى ان الصهيونية باقية في التاريخ حتى بعد زوال الاستعمار التقليدي وبعد غياب المستعمرين عن الشرق الاوسط •

وخلاصة القول ان الصهيونية توجه الدول الغربية أكثر مما تتوجه بها ، وتؤثر في خطط الاستعمار الغربي أكثر مما تتأثر به • ولم يعد سرا ان حملة السويس في سنة ١٩٥٦ لعبت فيها اسرائيل الدور الرئيسي ، اذ استدرجت فرنسا ، مستغلة ظروف تأميم القناة ، ثم قامت هي وفرنسا باستدراج انكلترا الى خطة العدوان (٣) • وخرجت اسرائيل من تلك الحرب وهي الدولة الوحيدة الرابحة ،ففتح خليج العقبة أمام سفنها

---

(١) Elizabeth Monroe, How Balfour Persuaded the Cabinet, The Times, Nov. 2, 1967.

(٢) المصدر السابق .

(٣) Le Coup de Suez, L'Express, 12 - 18 Juin 1967.

وضمنت أمنها على الجبهة الجنوبية بمرابطة قوات الطوارىء الدولية على الحدود بينها وبين مصر •

سابعا ، من الخطأ كذلك النظر الى اسرائيل على انها نتاج حركة قومية فحسب ، انها وليدة حركة دينية ــ قومية ــ استعمارية ، لحسابها وليس لحساب الاستعمار التقليدي كما يتصور الثوريون • وقد قامت الحركة في الاصل على أساس الدين القديم واعتقاد اليهود بأنهم شعب الله الخاص • وهذا جانب من القضية لم يظفر حتى الآن بالعناية الكافية والدراسة والاهتمام • والمسيحيون العرب ، مدعوون بصورة خاصة ، الى كشف هذا الجانب من قضية فلسطين ، لانفسهم أولا ، وللعرب المسلمين ثانيا ، وللمسيحيين في العالم بعد ذلك • فمشكلة اسرائيل ليست مع العرب فحسب ، انها مع العالم كله ، ومع العالم المسيحي على الخصوص • وهي ، في التحليل الاخير ، مشكلة كيان واستمرار في التاريخ بما يخالف القصد الالهي من التاريخ •

ان اليهود برفضهم للسيد المسيح واصرارهم على انشاء ملك دنيوي في أورشليم انما يعاندون الخطة الالهية • وهذا كله ، بطبيعة الحال ، حسب الاعتقاد المسيحي وعلى ما جاء في الكتب • كتب بولس الرسول : « لكني أقول لعل اسرائيل لم يعلم • أولا موسى يقول أنا أغيركم بما ليس أمة • بأمة غبية أغيظكم • ثم اشعياء يتجاسر ويقول وجدت من الذين لم يطلبوني وصرت ظاهرا للذين لم يسألوا عني • أما من جهة اسرائيل فيقول طول النهار بسطت يدي الى شعب معاند ومقاوم » (١) •

وليس هنا محل الخوض في موضوع لاهوتي عويص ، وانما يمكن تلخيص الامر ، في كثير من التبسيط ، بما يلي ، على أن يتقدم لشرح

---

(١) رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، الاصحاح العاشر .

هذا الجانب من الموضوع والتعمق فيه وجـلائه لنا أكثر فأكثر باحثون واختصاصيون في اللاهوت ٠

الصهيونية حركة سياسية ناتجة عن اليهودية ، واليهودية هي واقع ديني قبل كل شيء ٠ وهذه اليهودية رفضت السيد المسيح عندما جاء ، بعد أن وعدها بمجيئه أنبياء العهد القديم وبعد أن انتظرته أجيالا طوالا ٠ وهي برفضها للسيد المسيح الذي قال لها (مملكتي ليست من هـذا العالم) ، قد تخلت عن دعوتها وتنكرت لرسالتها وراحت تنتظر مسيحا آخر يبني لها دولة وسلطانا ٠

وفي عصور الضلال هذه ، التي ابتدأت بالرفض الكبير ولما تنته بعد ، حاول كثير من يهود العالم أن يتحرروا من مشكلتهم المزمنة بطرق مختلفة ٠ حاول بعضهم أن يذوب في شعوب أخرى بالتمثل ٠ وحـاول آخرون أن يصبحوا بالصهيونية أمة مثـل سائر الامم ٠ لكن هـذه الانحرافات عن الرسم الالهي لم تحل لهم مشكلتهم ٠ والحل الاخير الوحيد ، حسب الخطة الالهية المعلن عنها في الكتب والانبياء ، أن يرجع شعب الله القديم الى الله والى أسرة الله ، أي أن يـدخل اليهود في كنيسة المسيح التي هي اسرائيل الجديدة ٠ واذن فالحل الحقيقي لمشكلة اليهود في العـالم ليس بافنائهم على طريقة هتلر ، وليس بذوبانهم في الامم ، وليس بالصهيونية المقيدة بالسياسة والارض ٠ ان الخلاص هو في أن يقبل السيد المسيح أولئك الذين يشقون بانكاره ولن يجـدوا السلام الا في العودة اليه (١) ٠
هذا هو الموقف المسيحي الاصيل والاساسي من المشكلة اليهودية ٠ ولا بد

(١) رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، ٩ – ١١ ٠
رسالته الى أهل غلاطية ٠
رسالته الى العبرانيين ٠
Pierre Benoit, Exégèse et Théologie, 337 - 39.

أن تؤثر هذه النظرة على مواقف المسيحيين في الغرب آخر الامر ٠ وهي بدون شك قد أملت على الفاتيكان عـدم الاعتراف باسرائيل ، لان الاعتراف باسرائيل معنـاه الاعتراف بكيان « قام ضد الله وضد السماء » ، على حد تعبير لاهوتي شرقي ٠ فالكنيسـة هي شعب الله الجديد ، كما قدمنا ، وهي اسرائيل الجديدة التي وعـد بها اليهود ٠ والمسيح « هو الهيكل والميراث والمملكة والملك وهو انجاز الوعـود جميعا » (١) ٠

ولو كان ساسـة الغرب في القرن العشريـن مدركيـن للموقف المسيحي من المشكلة اليهودية وعاملين بوحي ادراكهم لها لما وعدوا اليهود بوطن قومي في فلسطين ، ولا عملوا على قيام اسرائيل ولا دعموا كيانها منذ قيامها حتى الآن ، لان في ذلك كله تحديا للتخطيط الالهي حسب معتقدهم أو ما يجب أن يكون عليه معتقدهم كمسيحيين ٠

ولعل هذا الموقف المسيحي الاساسي من اليهودية قد أدى ، بحكم نزعة طبيعية عند البشر ، الى الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في البلدان المسيحية خلال التاريخ ٠ فاذا كانت الكنيسة هي شعب الله الجديد فان اليهود يكونون شعبا مرفوضا أو « لا – شعب » ، ويكون بقاؤهم في التاريخ ، بعد مجيء المسيح ، فضولا من الفضول ، أو وجودا واقعا في غير زمانه الصحيح ٠

ولسنا نبرر الاضطهاد ولكننا نحـاول أن نفهم أسبابه البعيدة التي أشار اليها تلميحا الجنرال ديغول ببلاغته المعهودة ٠

ومن الانصاف أن نسجل ان اليهود لم يضطهدوا قط في البـلاد

(٢) تحت الاسم المستعـار (وائل الراوي) ، لسـان الحال ، ٤ حزيران ١٩٦٧ ، و ٢ تموز ١٩٦٧ ٠

الاسلامية ، ذلك ان الاسلام ينظر اليهم على انهم أهل كتاب • وقد جاء في مقال عن « اليهودي الاميركي » نشرته مجلة « تايم » سنة ١٩٦٥ ما يلي : « يمارس اليهود في أميركا المعاصرة حرية لا عهد لهم بها ولم يسبق أن عرفوها لا في اسرائيل القديمة ولا في عصرهم الذهبي في اسبانيا الاسلامية •• » (١) •

لقد عرف اليهود أعز أيامهم تحت الحكم العربي الاسلامي في الاندلس وعرفوا المعاملة الكريمة في كل مكان من العالم العربي الاسلامي قبل قيام اسرائيل • ومن سخرية الاقدار ان العالم المسيحي الغربي ، الذي اضطهد في وسطه اليهود ، حاول أن يجد لهم مخرجا وأن يرفع عنه وزر صنيعه بهم ، على حساب العرب والاسلام • وهكذا يكون العالم المسيحي الغربي قد أخطأ مرتين : أخضع اليهود للعزلة والاضطهاد في الاحياء المغلقة (ghetto) من مدن أوروبا ، وجاراهم بعد ذلك في ضلالهم وابتعادهم عن الحل الصحيح بانشاء « غيتو » جديد في قلب العالم العربي •

في القرن الماضي أعلن الشاعر البولندي آدم ميكيفكس ان بولندا هي المسيح بين الامم ، صلبت وهي بريئة ، وانها ستنهض مرة ثانية ، وان تحريرها سيغدو تحريرا للجنس البشري كله من الظلم والحرب (٢) • وبمعنى أعمق وأدق يمكن اعتبار العرب الامة المصلوبة بين الامم في زمان الناس هذا • والصالبون هم أحفاد الذين صلبوا السيد المسيح من قبل ، وشارك في الصلب أقوام يحملون اليوم اسمه الكريم •

وبعد فان مشكلة عالمية بهذه الضخامة وهذه الابعاد تحتاج الى أقوى فكر يملكه العرب ، والى أصفى وطنية وأوضح رؤيا ، والى أبعد

---

(١) The New American Jew, Time, June 25, 1965.

(٢) Adam Mickiewicz (1798 - 1855), Hans Kohn, Nationalism, P. 42

تخطيط وتنظيم • كما انها من الاهمية والخطر بحيث لا يجوز أن توضع في صف واحد مع أية مشكلة ، صغرت أم كبرت ، تجابه العرب في النصف الثاني من القرن العشرين • فهي في صف وحدها ، وفوق كل قضية بمسافات • انها قضية القضايا ، وقضية العصر •

ثم لا يكفي أن نقرر هذا ونرجع الى ما كنا فيه من تمزق داخلي وخلاف عربي وتخبط خارجي • اذا كانت قضية فلسطين تنطوي على معركة مصير ، كما نسمع كل يوم ، واذا كانت قضية حياة أو موت بالنسبة الى العرب ، فان لها حقها وسعيها وأدبها وضبطها •

من حق القضية على العرب ألا يفسد عليهم اجماعهم حولها مذهب عقائدي مستورد أو دعوة مستعارة أو نهج اقتصادي منقول أو برنامج حكومي موضوع •

ومن حق القضية أن ترتفع فوق الاشخاص ومصائرهم ، وفوق الاحزاب ومكاسبها ، وفوق الانظمة وحظوظها في البقاء •

ومن حق القضية أيضا ألا تطرح على انها مشكلة من المشاكل التي يختلف فيها الشرق والغرب • ان اليهود استطاعوا في ساعة ميلاد اسرائيل أن يجمعوا الشرق والغرب على الاعتراف بهم ، وجاءوا بالمال من أميركا واشتروا السلاح من تشيكوسلوفاكيا • وعلى العرب أن يعملوا على كسب التأييد لقضيتهم من الشرق والغرب جميعا • ولئن أكدنا فيما تقدم على ضرورة استبعاد العداء الدائم ضد الولايات المتحدة وضد الغرب عامة ، فانا نؤكد ، بالمنطق نفسه ، على ضرورة استبعاد العداء ضد الاتحاد السوفياتي والشرق عامة • ذلك ان روسيا هي أحد الجبارين في الارض وثاني اثنين ، ولها وجود في الشرق الاوسط ، ولها قول في أحوال المنطقة وأوضاعها ، وهي عنصر توازن في العالم لا ينكر ، ولن

يعرف الشرق الاوسط سلاما الا باتفاق الدولتين . كما ان للرأي العام العالمي وزنه في كل مشكلة عالمية ، وفي هذه المشكلة ، على الخصوص ، اذ تلامس جوانبها الروحية الديانات الكبرى في العالم .

ولعل نصيحة جورج واشنطن لبلاده في علاقاتها مع الامم تغنينا عن كثير من التفصيل ، فهي قاعدة كلية تصلح لزماننا هذا وكل زمان . قال جورج واشنطن في خطبة الوداع سنة ١٧٩٦ : « وفي تطبيق خطة كهذه لا شيء أهم من أن يستبعد العداء الدائم المتأصل ضد أمم معينة ، والتعلق العاطفي بأمم أخرى ، وأن يقوم مقام هذين شعور عادل وسلمي نحو الجميع . الشعب الذي يضمر لشعب آخر بغضا معتادا أو حبا معتادا هو عبد الى حد ما . هو عبد لحقده أو لوده ، وكلاهما كاف ليصرفه عن واجبه وعن قصده » (١) .

هذا وحين يكون العرب عربا ، والحكم حكما قوميا خالصا ، مرتبطا بالشعب ارتباطا عضويا ، وحين يشرف العقل العربي والضمير الوطني على شؤون العرب ، عندها يجري البحث صادقا عن المصلحة الحقيقية للامة العربية ، لا شيء غيرها ، وتلتمس بعد ذلك الوسائل لتحقيق تلك المصلحة العليا . تلك أولية بديهية مسلم بها ، لكن مدرسة ثورية أفسدت على العرب التفكير كله وقلبت المفاهيم جميعا ، اضطرتنا الى أن نعود الى أوليات الامور وبديهياتها . وليست هذه أول مرة نضطر فيها الى تقرير حقائق معروفة حتى الابتذال . وعسى أن يغفر القارىء لنا هذا الذي حملنا عليه كارهين .

---

(١) George Washington, Farewell Address, Sept. 19, 1769.
تجد نص الخطاب بالعربية في كتاب « وطنيون وأوطان » للمؤلف ، ص ٦٨ – ٧٦ .

الإيديولوجية الثوريّة والقيم الباقية

« ان أصدق محك للحضارة ليس الاحصاء ، ولا حجم المدن ، ولا الاغلال ، وانما نوع الانسان الذي تخرجه البلاد » .

(اميرسون)

قبل ذلك الخامس من حزيران بشهر نشرت مجلة « جيش الشعب » في سورية مقالا بقلم المرشح في الجيش ابراهيم خلاص ، تحت هذا العنوان : (الطريق لخلق انساننا العربي الجديد) . وقد جاء في المقال :

« استنجدت أمة العرب بالاله .. فتشت عن القيم القديمة في الاسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا ..

« والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب ، وبناء المجتمع العربي ، هي خلق الانسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن ان : الله والاديان والاقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين .. وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست الا دمى محنطة في متاحف التاريخ » (١) .

ان نشر ذلك المقال في مجلة تصدر عن مؤسسة من مؤسسات الدولة ، في ذلك التاريخ ، يثير عددا من الاسئلة الخطيرة ، هذه بعضها :

كيف يكتب هذا الكلام وينشر في بلد عربي اسلامي ومسيحي ؟

ان حرية التفكير والتعبير من الحريات الاساسية ومن حقوق الانسان ، ولكن هل من أدب الحرية أن يؤذي الكاتب الناس في شعورهم ويمس ايمانهم بأقدس المقدسات ؟

---

(١) الحياة ، ٥ أيار ١٩٦٧ .

هل كان صاحب المقال يخوض في بحث فلسفي كما يخوض أساتذة الجامعات في موضوع أكاديمي ، أم انـــه قام بعمل اعلامي وبتوعيـة ايديولوجية ؟

وهذا التفكير الجديد الـــذي لا يعرف الورع ولا التقى ولا يرى لشيء وقارا ، هل يؤمن حقا بالانسان ؟

ثم أي فكر هذا ، وأية نزاهة في التفكير ، وأي اخلاص للحقيقة ، وأي انضباط عقلي هذا الذي يضع الله ، سبحانه وتعالى ، في صف واحد مع الاقطاع والاستعمار والمتخمين ؟

وما هذا الانسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يراد له أن يكفر بكل القيم ؟

ما هي قيمه الجديدة ؟

الانسان العربي القديم نعرف هويته ، فما هوية الانسان الاشتراكي العربي الجديد ؟

ان نشر ذلك المقال لا يدل على ان أهـل الشام أعرضوا عن القيم ، فالدولة ومؤسساتها والايديولوجية الرسميـة شيء ، والشعب وشعوره واعتقاده شيء آخر • كما ان الكلام الوارد في المقال قد لا يكون تعبيرا ، مسؤولا ومدروسا ، عن رأي الحاكمين •

لكن الامر الذي لا شك فيه هو ان المقال كتب ونشر في منــاخ الايديولوجية الثورية ، وهو مناخ أقل ما يقال فيه انه لا ديني أو لا مبال بالديــن •

ان الايديولوجية الثورية في بلاد العرب لم تتعرض مباشرة للقيم الروحية ، ولكنها كانت بصورة غير مباشرة تعادي القيم القديمة كلها من

روحية وانسانية وعربية ، باسم الجدة والتقدم والتغيير الثوري • وهي في تأكيدها على الجانب المادي من الحياة وما يتصل بالمادة من أجـور ومستوى عيش قد أهملت الجانب الروحي وما يتصل بالروح من مثـل وقيــم •

وفي مقالة المرشح ابراهيم خلاص ظهرت نزعة من نزعات الايديولوجية الثورية كانت خفية أول الامر ، مدارية في أكثر الاحيان ، ثم شعرت بأنها تستطيع أن تعلن عن نفسها بعد تمهيد طويل • وقد جاء رد الفعل عنـد الشعب قويا أصيلا ، وبدا لكل ذي عينين ان ألفي سنة من المسيحيـة وأربعة عشر قرنا من الاسلام لا يمكن أن تلغيها عشرون سنة من التعليم الخاطىء أو عشر سنين ، ولو سخرت للتوعيـة الايديولوجية كل وسائل الاعلام المتاحة للدولة الكليــة في هذا العصر • ان الحقـائق الخالدة لا تبطلها السفسطة واللغو الايديولوجي • لكن الخطير في المقال انه يمثل نزعة الحاد رافقت الايديولوجية الثورية من البدء •

وقد تناول هذه الظاهرة المرافقة للايديولوجية الثـورية في العالم العربي السيد محسن الحكيم في رسالته الـى المؤتمر الاسلامي ، فـي أيلول ١٩٦٧ ، فقال :

« تزايد الالحاد في السنين الاخيرة في العالم العربي حدة وضراوة بحكم سيطرة قوى تتبنى المناهج ذات المضمون الالحادي في بعض الدول العربية ، ويزداد التيار المناهض للدين وللروحية بوجه عام في جميع الدول الاخرى ذات الانظمة التقليدية •

« ولا شك في كون التعليم الثانوي والعالي قد غدا مكرسا أكثر فأكثر لحرب الاسلام واهماله على الاقل ، وقد غدت الكتابة المناهضة للاسلام وللروحية بوجه عام مادة للصحافة اليومية ، بحيث ان الانسان

العادي أخذ يشعر انه يعيش في جو لا ديني تقريبا » (١) •

والواقع ان المدرسة الثورية انتدبت نفسها لعمل ضخم حقا • جاءت بالثورة أسلوبا وبرنامجا وشعارا وثارت على القيم الروحية والتراث القومي وأسس المجتمع القديم كلها • وجعلت الايديولوجية الثورية عقيدة تضعها مكان الوحي ومكان التراث • فالمحاولة ، في التحليل الاخير ، تتلخص في الثورة ضد الوحي •

الامة العربية التي قام مجتمعها على أسس من الوحي ، أمة القرآن في أغلبيتها وأمة الانجيل في أقدم عناصرها ، هذه الامة يقترح عليها أن تتخلى عن ينابيعها الروحية وأصولها التاريخية لتجري وراء شعارات فارغة وثورة مستمرة •

لقد قدّر الاستاذ هاملتون جب ان القومية في الشرق الاوسط عدو للتقليد الثقافي الاسلامي (٢) • ولسنا نجاري المستشرق الكبير في هذا الرأي على اطلاقه • لكن القومية العربية ، بمفهومها الثوري وعلى أيدي الايديولوجيين ، جاءت مصداقا لما ذهب اليه ، وانفصلت عن الدين والتراث والتقليد •

ومن الضروري أن نميز بين القومية بمفهومها الاصيل وبين القومية بمفهومها الثوري • القومية الحقيقية لا تتعارض مع الدين • انها تعطي ما لله لله وما للقوم للقوم • والقومية ، بمفهومها الارفع ، ممارسة لفضائل يأمر بها الدين • هكذا فهم القومية واحد من أنبل معلميها ، جوزيف مازيني Mazzini ، حين تحدث عن واجبات الانسان :

« وطننا هو بيتنا ، البيت الذي أعطانا الله ، واضعا فيه عائلة كبيرة

---

(١) الحياة ، ٢٠ أيلول ١٩٦٧ •

(٢) H.A.R. Gibb Modern Trends in Islam

تحبنا ونحبها أيضا ، عائلة نعطف عليها أرق العطف ونفهمها أسرع مما نفهم الآخرين ، عائلة معدة لميدان خاص من ميادين النشاط الانساني لانها مركزة في مكان معين ومكونة من طبيعة متجانسة العناصر والاجزاء • وطننا هو مصنعنا المشترك ، منه يصدر محصول عملنا لخير العالم كله ، وفيه تجتمع أدوات العمل التي نجيد استعمالها • انا لا نستطيع أن نرفضها دون أن نتمرد على خطة الاله القدير وننتقص من قوتنا » (١) •

ثم ان الرجل المؤمن بالله الحافظ لشريعته يعرف حق الاسرة عليه وحق الجماعة وحق القوم ، وهو أقوى وأقدر على النهوض بواجبات المواطن من رجل لا يؤمن ولا يستمد عونا من عند الرب • وبتعبير أدق ، الرجل المتدين هو الذي يملك الفضائل التي تحتاج اليها الدولة وبدونها لا تستطيع أن تبقى ـ الشعور بالواجب ، الاستقامة ، الضمير الحي ، الاستعداد للتضحية ، احترام الاجتماع البشري ، وحب الجار وحب القريب •

الرجل المؤمن هو أبو المواطن الصالح ، اذا قتل في سبيل بلاده ذهب شهيدا ، واذا اضطهد وتألم وصبر وكافح وناضل فله أجره عند الله ان ضاع أجر عند الناس • وهو كالصخرة الصامدة في وجه الاعداء ، لا يخون الامانة ولا يغريه مال الارض ومتاع الحياة الدنيا ، لان ما عند الله خير وأبقى •

ثم ان الايديولوجية الثورية جاءت على البلاد العربية في زمان تغير وانتقال سريع • والمجتمع العربي الذي كان مستقرا على القيم القديمة هبت عليه رياح العصر وجاءته بقيم جديدة ومذاهب ونظريات وآراء ، فاضطرب بين عالم قديم لم يتطور التطور الطبيعي خلال العصور وبين

---

(١) جوزيف مازيني ، كتاب « واجبات الانسان » ، الانسانية والوطن •

عالم حديث لم يستقر بعد على نظام من القيم جديد .

ونحن في زمان تمتحن فيه كل القضايا ويجري التساؤل فيه عن كل ما اعتمدت عليه الانسانية في سيرها الطويل : الايمان بالله ، العائلة ، الوطن ، البناء الاساسي للمجتمع ، الفضائل القديمة ، المثل العليا . ويجري التساؤل على نطاق العالم .

وقد تساءل رجال من الغرب عن مصير القيم القديمة من شجاعة وروح ولاء ومفهوم نبيل يدعى الوطنية .

ويتساءل العرب اليوم عما جرى للوفاء عند العرب ، وللمروءة والشهامة ورعاية الجار وكل الفضائل التي عرف بها « السيد العربي » ، ذلك النمط الرفيع من الناس . ويتساءلون عما جرى لحب الوطن ــ الحب الحقيقي للارض والتراث والقوم ، وحب المواطنين ، جميع المواطنين ، من سكن الوطن ومن سكن الديار .

واذا كانت المجتمعات العريقة والمتقدمة في آن واحد ، قد استطاعت أن تجد توازنها وتجد من نفسها قوة لتصمد أمام تحديات العصر ورياح التغيير والرغبة في التجديد والنزعة الثورية عند الاجيال الصاعدة ، فان المجتمع العربي قد اضطرب أشد الاضطراب وفقد توازنه أمام الدعوات الجديدة .

ولا شك ان العربي في هذا المناخ الثوري المحلي والعالمي قد تعرض لفقدان هويته الاصيلة وراح يبحث عن هوية جديدة . ووقع في مشكلة تحديد الهوية وتعريفها . من العربي ؟ أو كيف يجب أن يكون ؟ هل هو الانسان المطل علينا من التاريخ متشحا برداء التقاليد العربية ، أم هو القادم الينا من أفق غريب ، قافزا من المجهول ، يحمل شعارا ويفجر ثورة ؟

وهنا يحسن أن نميز بين الانسان الثائر والانسان الثوري . وصاحب الثورة الايديولوجية هو ، في اصطلاحنا ، ثوري لا ثائر . أما الثائر فسيأتي عليه الكلام فيما بعد ، وأما الثوري ، هذا « الانسان الاشتراكي العربي الجديد » ، فلنحاول أن نرسم له صورة ذهنية أو قلمية نضعها أمامنا محاولين فهمه . وتبدو لنا خطوط الصورة وظلالها كما يلي :

١ ــ ان أول ما يطالعنا من ملامح الرجل الثوري مادة تطغى على الروح . نظرته الى الحياة مادية ، وهدفه في الحياة مادي ، يتوخى في أحسن حالاته زيادة الدخل للفرد وتحسين مستوى العيش . وهو عند السعي لتحقيق أهدافه المادية لا يبالي أسحقت النفس البشرية أم قتل الانسان .

الانسان الذي يكشفه لنا الوحي كائن روحي ، كرّمه الله تكريما وخلقه على صورته ومثاله وحمله الامانة والمسؤولية والحقوق والواجبات. أما الانسان في نظر الثوري فهو حيوان اقتصادي مرتبط بالحياة المادية ومهتم بالجسد ، لا يؤمن بخلود الروح ولا يبالي بما يحدث للروح .

٢ ــ والرجل الثوري طبقي لا قومي . ينظر الى نفسه على انه فرد من أفراد طبقة اجتماعية لا عضو في جسم أمة . والطبقة هي موضع ولائه أما سائر الناس في الامة الواحدة فهم أعداء يجب التغلب عليهم وتجريدهم من أسلحتهم وتصفية المتازين منهم تصفية فكرية وجسدية .

٣ ــ وهو ، ثالثا ، حزبي ينتمي لفئة ايديولوجية أو حزب طلائعي . أما الدولة فهي أداة سيطرة للطبقة الحاكمة ، كانت آلة بيد أعدائه فهو يثب عليها ويجعلها آلة بين يديه . هو حزبي يعمل لحزب ، لا مواطن صالح في دولة تضم الاحزاب كلها وترعى المواطنين جميعا وتحقق لهم أقصى الخير . وقد أهملت الايديولوجية الثورية فكرة « الدولة » ومفهوم « المواطن الصالح » لتمجد الحزب الواحد والحزبي .

٤ ـ والرجل الثوري لا تربطه بالوطن وأرض الوطن تلك الصلات العميقة الرقيقة التي تربط بين الارض وانسانها وبين الوطن وأهله • انه مرتبط بالثورة ونظام الثورة لا بالوطن وأرض الوطن • وطنه حيث تقوم الثورة أو حيث تسود •

٥ ـ وهو ، خامسا ، منسلخ عن الماضي ، منفصل عن التراث • انه شبح طارىء وليس انسانا أصيلا منحدرا من تاريخ طويل ، وليست له جذور عميقة في الماضي الذي يعيش في الحاضر • لا يتقدم لمشاركة أمته في سيرها التاريخي • به ينقطع التاريخ وبثورته يبتدىء عهد جديد • بهذا المعنى هو « جديد » وهو « غريب » ، ليس له أهل وليس له تراث وليست له دار • أو ان داره دار الثورة وأهله هم الجدد الغرباء •

٦ ـ والرجل الثوري ، لانه لا ديني ولا قومي ومنسلخ عن التراث والتقاليد ، فهو غير مقيد بالاخلاق التقليدية وبالصفات العربية • له أخلاقية ثورية أو لا ـ أخلاقية ثورية تبيح للثوريين كل ما يبيح ماكيافللي للامير وما لم يخطر على بال ماكيافللي من فنون التآمر والغدر والايقاع بالاخوان والاصدقاء ورفاق الطريق • وبآلية لا ـ أخلاقية تحركت الانقلابات في ظلام الليل وتلاحقت ضربات الحكم في بلاد العرب •

٧ ـ والرجل الثوري سلبي ، متصف بالرفض ـ يرفض التاريخ والتراث والقيم ، ويهدم كل شيء • قد احترف الثورة احترافا ، فهي غاية في حد ذاتها وطريقة في الحياة •

٨ ـ والدافع المحرك للرجل الثوري هو دافع حقد وسخط وانتقام • والثوري رجل غاضب ، ناقم على نظام الاشياء ، فهو يهدم ولا يبني لان الحقد لا يستطيع غير الهدم ، أما المحبة فهي القوة التي تستطيع البناء • هذه صورة الثوري المصدّق للايديولوجية الثورية ، المأخوذ بما

لها من جاذبية وجدة ورواج • وهناك الثوري الآخر الذي يقوم بانقلاب للاستيلاء على الحكم ويحتاج الى ايديولوجية يحسبها تخلع على الانقلاب ثوبا جديرا بالاحترام •

وقد يتساءل القارىء : أحقا يوجد انسان ثوري على هذه الصورة ؟ والجواب ، بالطبع ، لا • فتلك صورة « المثل » اذا بلغ تمامه وصورة الثوري المحض ، « وليس محض » ، على حد تعبير أبي العتاهية • قد لا يكون لهذا الثوري وجود الا في عالم الفكر ، وانما هناك أنماط من الثوريين تقترب من « المثل » اقترابا وتحقق بعضه أو أكثره •

والثوري التام لا يوجد ، لسبب عميق هو ان الايديولوجية الثورية وكل أجهزتها وأدواتها وسلطات دولتها لا تستطيع أن تشوه الى ذلك الحد طبيعة الانسان • ففي الانسان جوهر يمتنع على أقصى الفساد ، وروح تتمرد على الشر ، ونور يأبى أن ينطفىء •

رأينا ما صنعت الايديولوجية الثورية بانسانها الثوري ، فكيف كان صنيعها بالمواطن والانسان الخاضع لحكمها ؟ حاولت أن تعيد خلق الانسان على صورة الثوري ومثاله فما استطاعت ، لكنها جردت الانسان من حقوقه وعطلت مواهبه وأخضعت حياته للخوف والقلق • في ظل النظم الايديولوجية الثورية تضاءل الانسان العربي وتقلص حجمه الادبي وضعف وذل وهان وصار أقل من نفسه • وهنا المحك الاخير لاي حكم • فالشيء المهم ليس النظام ولا الدولة ولا فلسفة الحكم ولا السياسة الخارجية • السؤال الحقيقي هو : ماذا يحدث للانسان في ظل هذا النظام أو تلك الايديولوجية • فالمقياس الاخير لصلاح أي نظام لاية دولة في أي زمان وفي أي مكان هو السؤال القديم الذي طرحه سقراط على السياسي الاثيني كاليكليس : « هل أصبح أي مواطن رجلا أفضل بتأثير كاليكليس ؟ » • والسؤال اليوم : هل أصبح الانسان العربي انسانا

أفضل في ظل الايديولوجية الثورية وما أشاعت من مناخ وما فرضت من نظام ؟ والجواب هو موضوع هـذه الرسالة كلها . وقد أجاب الواقع وتحدثت الينا الحوادث بأبلغ مما نستطيع ، عبر هـذا الحصاد المرير والشقاء المنتشر والتمزق القاتل والضياع .

أما اليهودي في اسرائيل فقد عاش بسلام وانسجام مع غايات أمته . هو في سلام مع مواطنيه وفي سلام مع دولته . ويكاد يكون هناك اجماع بين جميع العناصر في اسرائيل حول قيمهم المرغوبة ، باستثناء المتطرفين أقصى التطرف ـ القادمين الجدد من بلدان الشرق الاوسط من جهة والغلاة في الدين من جهة ثانية . أما الجسم الرئيسي من المجتمع في اسرائيل فهو موحد الشعور والقيم والغايات .

وان وحدة الاسرائيليين تتمثل في هذا القسم الذي يؤديه كل يهودي يبلغ سن الرشد : « هذا يميننا يا اسرائيل . أقسم أن أكرس ولائي لله ، وللتوراة ، وللشعب اليهودي ، وللدولة اليهودية » .

الاسرائيليون يجتمعون حول الههم وتوراتهم ويستمدون من هـذا الاصل الديني هويتهم وقيمهم ومثلهم . وهم بعد اعتمادهم على هذا الاصل الجامع الموحد يستطيعون أن يتسعوا للنظريات المختلفة وللانظمة المختلفة ويظلون يهودا تجري حياتهم في اطار التوراة والتلمود والتقليد القديم . فهم رأسماليون في تل ابيب واشتراكيون وشيوعيون في المستعمرات . وربما سخروا المذاهب والعقائد والنظريات لتخدم مصلحة اسرائيل في العالم .

كتب بن غوريون في رسالته الى الرئيس ديغول في مطلع هذا العام يقول : « ان سر بقائنا بعد التدميرين البابلي والروماني وحقد المسيحيين الذين أحاطوا بنا ألف عام ، يكمن في صلاتنا الروحية بالكتاب المقدس .

وعندما جاءت اللجنة الملكية البريطانية الى القـدس في آخر سنة ١٩٣٦ لتدرس مستقبل الانتداب قلت لها : الانتداب الخاص بنا هو التوراة . لقد استخرجنا منه قوتنا لنقاوم عالما معاديا ، ولنستمر في الايمان بعودتنا الى بلادنا » (١) .

وفي الصفحات الاخيرة من مذكرات وايزمان ما يعتبر وصية وتوجيها عاما لاسرائيل : « هدفنا هو بناء حضارة تقوم على المثل الصارمة للآداب اليهودية . عن تلك المثل يجب ألا نحيد ، كما فعلت بعض العناصر في حياة الوطن القومي القصيرة ، باحناء الركب أمام آلهة غرباء . لقد كان الانبياء دائما يؤنبون الشعب اليهـودي بأشد القسوة من أجل هـذه النزعة . وكلما عاد الشعب الى الوثنية وكلما ارتد كان يعاقب من قبل اله اسرائيل الشديد . وانه من الصعب القول فيما اذا كان سيظهر أنبياء بين اليهود في المستقبل القريب . ولكنهم اذا اختاروا الحياة الصادقة الصعبة النقية على الارض في منازل مبنية على المبادىء القديمـة ، واذا استهدفوا في نشاطهم قيما حقيقية ، في الصناعة والزراعة والعلم والادب والفن ، عندها يطل الله بعطف على أبنائه الذين عادوا بعد تيه طويل الى بيتهم ليخدموه ، وعلى شفاههم مزمور وفي أيديهم مجرفة ، محيين بلادهم القديمة وجاعلينها مركز حضارة انسانية » (٢) .

واستطاعت اسرائيل أن تعبىء لمصلحتها العاطفة الدينية عند اليهود في العالم وتتلقى منهم العون والمزيد من العون . بينما كانت السياسة العربية الثورية تعادي الدول الاسلامية غير العربية ، وتخاصم الدول الاسلامية العربية ، وتصمها بالرجعية والتخلف لتمسكها بالدين ، وتعتبر كل تقارب بين المسلمين تحالفا استعماريا ، وتهمل الجانب المسيحي من

(١) Le Monde, 10 Jan. 1968

(٢) Chaim Haïm Weizmann, Trial and Error, P. 571

العالم الغربي ، وتجرد انسانها الثوري من قوة روحية هائلة ، وتجرد سياستها الخارجية من بعد هو الاساسي من ابعادها •

ان الخطر الاكبر لم يداهمنا من انقضاض طيران العدو وغزو ألويته ودباباته وانما جاءنا من انهيار داخلي سبق المعركة بأعوام ومن محاولة الانتحار الادبي • والتخلي عن الحقيقة والفضائل والقيم قضى على أمم كثيرة من قبل في التاريخ • ان ما حدث داخل المجتمعات الثورية كان وحده سببا كافيا ليجلب لنا الدمار الروحي والدمار المادي جميعا •

وفي موضوع القيم يجب ألا يؤخذ الناس بالحديث عن قيم قديمة وقيم جديدة •

هناك قيم انتهت اليها الانسانية في تجربتها الطويلة •

قيم قررتها رؤى الانبياء واجتهاد الفلاسفة وأحلام الشعراء •

قيم لا يسري عليها القدم •

هي قيم قديمة حديثة خالدة يجب أن يكتشفها كل جيل ويدفع ثمنها كل جيل لتكون له الحياة •

والثورة الاصيلة تقوم على المبادىء الخالدة والقيم الباقية •

هي ثورة عمر بن الخطاب على ولاته منذ أربعة عشر قرنا : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

هي ثورة الاحرار في القرن الثامن عشر واعلان حقوق الانسان •

وهي ثورة الطلاب والشباب في أكثر أقطار الارض في زماننا هذا •

ان الانسانية تعود اليوم مع أجيالها الصاعدة لتذكر القيم التي قال بها الفلاسفة وقال الانبياء ودلت على صحتها حكمة الاجيال ــ ومحورها جميعا الانسان ــ حقه ، حريته ، كرامته ، ارتقاؤه •

وأحسب ان أدموند بورك (Burke) ، ذلك المعلق الكبير على الثورات ، قد وضع الامور في نصابها عندما قال : « دم الانسان ينبغي ألا يراق الا ليفدي دم الانسان • والدماء تراق كريمة من أجل أهلنا وأصدقائنا ، من أجل الهنا ، وفي سبيل بلادنا والانسانية جمعاء • كل ما عدا ذلك باطل ، كل ما عداه حرام » •

وأحسب انني وصفت الثائر الاصيل حين تحدثت عن الثورة الاصيلة •

حكم التاريخ على التعليم الثوري

« أيها الناس من رأى منكم اعوجاجا فليقومه »

(عمر بن الخطاب)

هناك ملاحظة لم تجد بعد مكانا في هذا الحديث ، وهي تتعلق بالقاموس السياسي وباللغة أداة التفكير والتعبير . لقد أساءت الايديولوجية الثورية الى اللغة العربية فقتلت كلمات شريفة المعنى ، وشوهت كلمات ، وأفرغت كلمات من معانيها ، وأرهقت بعض الكلمات بالاستعمال الثوري ، وأفسدت القاموس السياسي حتى أصبح عاجزا عن تأدية المعنى المراد على وجه الدقة والضبط . وكان علينا اما أن نضع كلمات جديدة أو أن نرجع الى القاموس القديم فنستعمل مفرداته مع التمييز بين المعنى الاصيل للكلمة وبين المعنى الدخيل . وكان علينا في الحالة الثانية أن نقول مثلا « القومية الاصيلة » لتمييزها من القومية بمفهومها الثوري ، و « الثورة الاصيلة » و « الحرية الحقيقية » و « التقدم الحقيقي » ، ولم نلتزم بهذه الطريقة دائما تجنبا للتكرار .

والصلة وثيقة بين عادات التفكير الايديولوجي الثوري وبين تشويه الكلام وافساد اللغة . وتحريف الكلمة ظاهرة تدل على ارتباك المعنى وفوضاه .

ونعود الى سياق الحديث فنقول ان العرب في « يوم الحساب » ، أو في « لحظة الحقيقة » كما يقولون ، لم يكونوا أمة ، ولم تكن الدولة دولة في الاقطار الثورية ، ولا كان الجيش جيشا ولا الشعب شعبا ولا المواطن مواطنا .

ان التفكير الخاطىء أفسد على العرب كل شيء . أفسد جسم الامة وعقلها وأفسد مؤسسات الدولة وسياستها وحربها وسعيها كله . وأفسد على المواطن العربي ولاءه وعمله ومزق كيانه تمزيقا .

أما الامة فلم تكن أمة عربية واحدة في شتى أقطارها . لقد كانت أمما شتى في الوطن العربي وضمن الدولة الواحدة والمجتمع الواحد . فهناك الدول « الثورية التقدمية المتحررة » ، كما يصنفون ، وهناك الدول « التقليدية الرجعية المتخلفة » ، كما يقولون ، وبين أنظمة الدول المختلفة حرب اعلامية لا هوادة فيها وكيد متبادل وصراع يتخذ الحرب الاهلية في اليمن ميدانا من ميادينه .

وضمن كل دولة جرى تقسيم المجتمع الى طبقات تتصارع . فطبقة « اقطاعية رأسمالية رجعية متحالفة مع الاستعمار » يجب أن تصفى تصفية فكرية وجسدية وتزال من الوجود .. و « طبقة الشعب العاملة التقدمية الاشتراكية ، صاحبة المصلحة في الثورة » يجب أن تحكم وتسود . وبين الطبقات أثيرت حرب أشد من حرب الاعداء . وقامت « أمة الانقلاب » ، باسم الطليعة ، تمزق الدساتير وتغتصب الحكم وتفرض حكم القلة على الكثرة بالقوة والقهر .

وانقسم الناس أيضا ، ايديولوجيا ، الى فئات متصارعة ، ودخلت الخلافات الايديولوجية البيت الواحد فقسمته على نفسه وجعلت الاخ ضد أخيه والابن ضد أبيه .

وأحدث هذا كله صراعا في النفس العربية ، وأصبح الفرد ممزقا بين قيم قديمة نشأ عليها وقيم ثورية فرضت عليه ، ممزقا بين الولاء الطبيعي للارض والاهل والوطن وبين الولاء الجديد المصطنع للحزب والثورة والنظام .

اذن لم تكن الامة أمة واحدة وانما كانت ، بفضل التعليم الثوري ، أمما شتى متعادية متخاصمة تتفانى .

ولم تكن الدولة دولة حق وقانون ، منظمة مستقرة حديثة نامية قادرة على أن تعبىء الشعب كله وتدفع بجيشها القادر الى الميدان وتقرر السلم والحرب على ضوء المصلحة العامة .

كانت الدولة في يد قلة مستبدة ولم تكن التنظيم العالي للشعب .

كانت الدولة بيد الحزب ضد الشعب ، وكان الشعب ضد الدولة والحزب جميعا . وقيل في تفسير ما جرى أثناء المعركة ان الانظمة المفروضة لم تستطع أن تدفع بقواتها المقاتلة وأسلحتها كلها الى ميدان القتال وانما احتفظت بأفضل ألويتها للدفاع عن الثورة ، أي للدفاع عن الطبقة الجديدة الحاكمة « أمة الانقلاب » .

ولم يكن الجيش جيشا ، فقد عمل الانقلاب مثل آلة جهنمية في سلسلة متلاحقة لتهديم الجيش وتدميره . وتحول ما بقي منه الى كتائب حزبية وظيفتها حماية الحكم من أعدائه في الداخل ، غير قادرة على أن تحمي الوطن من أعدائه في الخارج .

ولم يقاتل الضابط ولم يستبسل الجندي ولا حلّق الطيار في الجو ليؤدي واجبه ويقوم بدوره في المعركة . ان الايديولوجية الثورية لم تستطع أن تحركه الى التضحية والفداء كما كان يمكن أن تحركه فضيلة الوطنية وعاطفة الدين ونخوة القومية . ثم ان النظم الثورية الشاملة جردته من ملء قامة الرجل فأصبح انسانا أقل ، ومواطنا أقل ، ومحاربا أقل مما يكون الانسان والمواطن والمحارب في الدولة الحرة .

والشعب كان بعيدا عن الدولة والجيش ، مضطهدا من الدولة

والجيش ، وأكاد أقول انه ، في بعض الاقطار ، كان ينظر نظرة عداء للدولة والجيش • صحيح ان الجيش مؤلف من أبناء الشعب على كل حال، لكن الروح السائدة في الدولة ومؤسساتها لم تكن من روح الشعب •

والانسان العربي الذي هان وذل وافتقر وجرد من حقوق الانسان وكرامة المواطن قد صرفته هموم العيش عن الاهتمام بالشأن العام • كان مشغولا بتحصيل قوت يومه وباستنباط الوسائل والحيل للنجاة من أذى الدولة • أو كان مشردا أخرج من دياره فهو يبحث عن ملجأ وعمل في دار الاغتراب •

ووضعت الايديولوجية الثورية مكان القيم الروحية •

وقطعت الاشتراكية العلمية الروابط القومية •

وقامت دعوة الولاء للطبقة مقام الولاء للامة •

ووضع الحزب نفسه فوق الدولة •

وحلت الثورة محل الوطن •

ومزقت الاهواء والارادات الشرائع والقوانين •

وساد الفرد وألغي الدستور •

وسقط الفكر ورفع الشعار •

ثم جاءت لحظة الحقيقة فكانت هزيمة حزيران حكم التاريخ القاطع على الايديولوجية الثورية وأنظمتها وعقائدها وسياساتها وجملة أمرها •

وعندما سقط السلاح العربي في الميدان كان يجب أن يسقط التعليم الثوري وتنتهي حياة الايديولوجية الثورية ، فهي السلاح العقائدي الذي بدّد السلاح •

لكن الايديولوجية الثورية لم تسقط ، وعملية النقد الذاتي لم تتناول الاسس الفكرية الخاطئة ، وانما تناولت جوانب من التطبيق وظلت متمسكة بشعاراتها ونظرياتها •

ثم ان عملية النقد الذاتي كانت انحناء أمام العاصفة وترضية للرأي العام ولم تكن رجوعا عن خطأ أو توبة صادقة • فالتائب يعترف بذنبه ويعلن توبته ويستغفر ويرجو الصفح ، لكن كبرياء الايديولوجية الثورية لا توحي بتوبة ورجوع الى الصواب • وهذه شعاراتها وأفكارها تتردد بعد النكسة كما كانت تتردد من قبل كأن شيئا لم يحدث وكأنها خرجت منتصرة من معركة ساقت العرب باسم التحضير لها عشرين عاما •

وللقارىء أن يسأل : كيف استطاعت مدرسة ثورية في بلاد العرب أن تفرض تفكيرها الخاطىء على العرب كل هذه الاعوام ، وكيف استمر الخطأ وبسط أجنحته السوداء على البلاد ؟ وأين كان الشعب وأين كان المفكرون وقادة الرأي وزعماء الامة ؟

اذا استطاعت غوغائية قاهرة آسرة أن تقود الجماهير من آذانها وتسوقها الى حتفها فهذا معناه ان قادة وزعماء ومربين وكتابا ومفكرين قد تخلوا عن رسالتهم • سكتوا عن أفضل ما علموا • أبوا أن يحملوا الامانة ولاذوا بصمت القبور •

مهمة الفكر أن يتفاعل مع المجتمع ويعيش قضايا العصر ومشاكل البلاد ، وأن يعبر للامة عن آلامها ومخاوفها وآمالها ، وأن يحذر ويبلغ في الوقت المناسب ، وينذر قبل حلول الكوارث ، مشيرا الى الاخطار ، كاشفا للاخطاء ، مقوما لكل اعوجاج •

واذا سكت عن الخطأ ولم ينه عن منكر سنة بعد سنة ، ومضى عقد

بعد عقد من السنين ولم تعلن الحقيقة ، أفلا يضل العقل ضلالا بعيدا ويفسد التفكير فسادا يستعصي على الاصلاح بمر الزمن الطويل ؟

وماذا يحدث للاجيال التي تنشأ في ظل الايديولوجية الثورية وتتلقى التعليم الخاطىء كل يوم وتعيش في مناخ فكري مزيف بعيد عن حقائق الاشياء ؟

أي قلب لا ينفطر وهو يرى أجيالا كاملة تضلل تضليلا وتتعرض عقولها ونفوسها لتخريب منظم مخيف ، ومع تخريب الاجيال الناشئة يخرب مستقبل الامة قبل أن يولد .

أمام هذا الخطر المتفاقم لا يستطيع المفكر أن يتعد ويعتزل ويتوارى . في قائمة عيوب الناس ونقائص البشر يخصص دانتي مكانا في الجحيم لاولئك الذين يعتصمون بالاعتزال والحياد في ساعات أزمة أخلاقية كبرى .

وقد علم الناس ان بلادنا تمر بمحنة ليس هناك محنة أشد هولا منها، وعلى المفكر ، وعلى كل مواطن ، من أجل الحقيقة ومن أجل الكرامة ، أن يعنى بمحنة أمته وأن تكون شغله الشاغل .

ويخيل اليّ ان سؤالا سيوجه يوما الى كل واحد من أهل هذا الزمان ، والسؤال رهيب : ماذا صنعت من أجل أمتك في ساعة محنتها ، وأين كنت عندما قهرت بلادك واضطهد شعبك وتعرض كل شيء غال للضياع — الوطن والتراث والانسان ؟

وأترك القارىء مع هذا السؤال لاعود فأؤكد على بعض المعاني قبل انقضاء هذا الحديث .

١ — هناك نظام يضبط عالم الروح مثل النظام الذي يحكم عالم

الطبيعة ، ولا يستقيم أمر أمة من الامم ولا يستقر مجتمع من المجتمعات الا على القواعد الازلية التي يرشدنا اليها الوحي ، والفكر العالمي الاصيل، وتجربة الانسانية ، واختبار الامة في تاريخها الطويل .

٢ — ان الحكم الوحيد اللائق بالانسان هو الحكم الديمقراطي القائم على الشورى وعلى تغليب ارادة الجماعة بعد النقاش الحر . والحكومة المعقولة الوحيدة ، المطابقة لشرف الامة ، هي حكومة الدستور . والحكومات المتخلفة يحكمها مستبدوها والحكومات المتمدنة تحكمها شرائعها .

وفي تراث العرب مبدأ أساسي نصت عليه الآية القرآنية منذ ألف وأربعماية سنة : « أمرهم شورى بينهم » . ويلتقي هذا المبدأ الكبير بأساس النظام الديمقراطي التمثيلي الذي انتهت اليه الانسانية الراقية .

ثم ان اشراك الشعب في الحكم أمر يقتضيه الخلق العربي وتمليه مصلحة العرب . وقد تنبه المفسرون منذ القديم الى ضرورة مراعاة الخلق العربي الابي فقالوا في (شاورهم في الامر) ان الله علم ان العرب يثقل عليهم الاستبداد بالرأي ، فأمر النبي بمشاورة أصحابه كي لا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم .

هذا وانه من الامور المسلم بها ان طبيعة القوة الاعتساف وان السلطة المطلقة تفسد على الاطلاق . وان استطاع الحكم المستبد أن يقوم بانجازات سريعة في بعض الاحيان فانه يفسد دائما أولئك الذين يمارسون السلطة المطلقة ويهدم الخاضعين لها دائما .

وان الضمان الوحيد لان تدار شؤون الامة وفق مصالحها وطبق رغباتها أن يكون لممثلي الامة المنتخبين انتخابا حرا القول الفصل في شؤونها والرقابة الدائمة على الحكومة وحق تغيير الحكومة عند الاقتضاء .

ولا يستقر حكم ولا ترتاح الضمائر الا في نظـام ديمقراطي يجري التغيير فيه مطابقا لتغير الارادة العامة كما تسجلها الانتخابات العـامة وأصوات الاكثرية في المجلس •

ذلك هو نظام الحرية وشرط تحقيقها •

٣ ــ وهناك معنى ثالث هو الاصالة في الحياة العربية • وتعني الاصالة أن يكون العربي عربيا ، لا مقلدا للآخرين ولا مزيفـا لقيمه الاصيلة ولا متخليا عن خلق من الاخلاق نبيل ونموذج انساني رفيع • ولا يكـون العربي عربيا اذا لبى دعوة التخـلي عن أخلاقه وقيمـه وآدابه وتراثه وماضيـه •

لكن القومية العربية ليست كل شيء • ليست القـومية دينا ولا مذهبا اقتصاديا ولا فلسفة حياة • هي هوية يحددها التاريخ والثقافـة ، وهي أسرة في الاسر الانسانية •

وقد أسرف من حمّل القومية معنى عنصريا • فالشخصية العربيـة كريمة سمحاء ، رحبت حضارتها الانسانية بعناصر مختلفة وأمم وأعراق وثقافات ، واحتضنتها وتعايشت معها في دولة تساوي بين الناس جميعا ، وتعاونت أجمل تعاون وأجداه • ولمحبة القريب ورعاية الجار واكرام الضيف مكـان في دين العرب وفي تقاليدهم القومية ليس له مثيل في أي تقليد قومي آخر • والجار والقريب هو في الدرجة الاولى ابن الحي وابن البلد والانسان المجاور لنا في الوطن والبلاد •

والعربي الاصيل انسان أصيل ، يستقبل بثقة تجارب الامم ولا يعتبر الشيء الانساني غريبا عنه • كل ما هو حق ، كل ما هو خير ، كل ما هو حسن ، كل فن وعلم ومهارة فانه يأخذه كما أخذ وأعطى في عصـوره

الذهبية ، مشاركا الانسانية في أرقى معارفها وفنونها وتطلعاتها ومساعيها •

ولا يفقد العربي شيئا من أصالته اذا شارك في الحضارة الانسانية وتبنى التراث العالمي وعاش في الثلث الاخير من القرن العشرين • ما يجعله انسانا أفضل يثبت فيه كل ما هو أصيـل وما يستحق البقاء من قيمـه وتراثـه •

٤ ــ ومعنى أخير تضعه المحنة الكبرى أولا ، هو معنى الوطنية •

ليست الوطنية قيمة « بورجوازية » رجعية قديمة •

انما هي قيمة انسانية من الطراز الاول والنمط الارفع •

قيمة تجمع طائفة من الفضائل منها الوفـاء والولاء والكرامة والاباء والشرف والشجاعة والتضحية •

قيمة جديرة بأن ترفع الانسان الى مرتبة البطولة ومنزلة الشهداء ، وتحقق ذلك الشيء الممتاز حقا والنفيس ، ألا وهو النبل والرفعـة فـي خلق الانسان •

انها تستدعي كل ما فـي كيان الانسان مـن مروءة ونخوة وعزة وشهامة وكبر •

وان أعلى نموذج للعربي اليوم وأنبل سيد في العرب هو «الفدائي» يجسد معنى الوطنية ويلقي الدرس الصامت البليغ • انه لا يخوض فـي الايديولوجية والمـذاهب والآراء ، ولا تعنيه النظم والمناهج وأشكال الحكـم • كـل ذلك لا قيمة له بدون وطن ، والوطن أرض تضيع وقوم يشردون وتراث يتبدد •

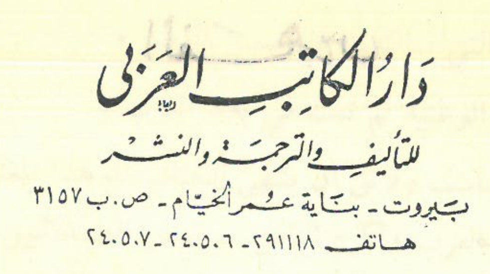
أحب « الفدائي » وطنه ، أرضا وتراثا وانسانا ، فهو يعطي حيـاته

ـ الحياة الوحيدة التي يملك ـ في سبيل الوطن ·

نحمد الله ان الوطنية لم تمت في بلاد العرب ·

وبعد ، فانه مناسب ولائق أن ينتهي الكتاب عند هذا المعنى ، ويرسل تحيـة الفكر لاعز العرب وأكرم الناس ـ معشر الفـدائيين ، من قضى نحبه ·· ومن ينتظر ·

الفهرس



صدر في منشوراتها :

	ق.ل.
صلاح الدين الايوبي ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
عبد العزيز آل سعود ، لبنوا ميشان ، ترجمة عبد الفتاح ياسين	٥٠٠
تاريخ العرب العسكري ، لمحمود الدرة	٦٥٠
تاريخ الفكر العربي ، لاسماعيل مظهر	٣٢٥
شهيرات النساء في العالم الاسلامي ، لقدرية حسين	٥٠٠
الخليج العربي ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
العدالة الاجتماعية في الاسلام ، لسيد قطب	٤٠٠
الاسلام ومشكلات الحضارة ، لسيد قطب	٤٠٠
تاريخ العرب في اسبانيا ، للدكتور خالد الصوفي	٦٠٠
ثلاثة من أعلام الحرية : جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول لقدري قلعجي	١٠٠٠
جمهورية افلاطون ، ترجمة حنا خباز	٦٠٠
رائد الثقافة العامة ، لهرشبرغ	٧٥٠
تاريخ البلاد السعودية ، للدكتور منير العجلاني	١٤٠٠
مشاهير رجال العلم ، لولتون	٥٠٠
الفنون الادبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، للمقدسي	١٠٠٠
المثل الاعلى للحضارة العربية ، للدكتور يحيى الهاشمي	٢٠٠
جيل الفداء ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
القدس لا أورشليم ، لشريف الراس	٣٠٠
حرب ٥ حزيران ، لابراهيم الحلو	٣٠٠
المؤامرة ومعركة المصير ، لسعد جمعة	٦٠٠
نظرات اسلامية في الاشتراكية العربية ، للدكتور معروف الدواليبي	٢٠٠
التشريع الجنائي الاسلامي لعبد القادر عودة	٣٠٠٠

مطابع دار الغد تلفون : ٢٣٥١٢